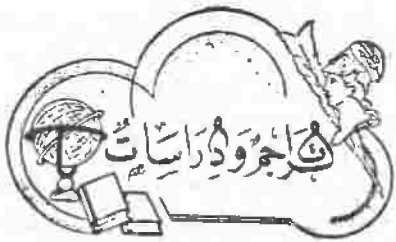

شوقى الشاعر

هذا شاعر نبه الجيل باسمه ، وعقد شعره على جبين مصر تاج الزعامة فى الشعوب العربية ، وكانت قصائده بالأمس القريب متطلع أدباء الشرق ومرتقب كتابه وشعرائه .

شاعر تهيأ له من أسباب الشعر ما لم يتهيأ لغيره ، وحبته العنايات بما لم تحبُ به شاعراً عربياً قبله من مواهب فنية خصه الله بها ، وحظوظ سعيدة مقدرة سمت به الى منزلة سامقة من المجد وذروة شاهقة من الشهرة والصيت الذائع .

ولقد عبر شاعرنا محيط الحياة بين عبرى الميلاد والموت محوطاً باعجاب الكثيرين من الخاصة والعامة ، وشهد بعينه تألق نجمه فى سماء البيان ، وهو ما لم يتح لأفذاذ الادباء والفنانين فى هذا الشرق العريق فى أدبه وفنه . وبلغ ببعض الصحف فى مصر منذ سنوات قلائل أن خصت كل قصيدة يختصها بنشرها بمائة من الجنيهات ، وذلك ما لم نسمع به أيضاً من عهد ملوك العرب حتى فى أوساط الغرب الأدبية وهى التى لم تضن على العلم والأدب والفن بالجليل من التقدير الأدبى أو المادى .

ولقد عجل القضاء بشوقى الى نهاية كل حى وهو لا يزال ينفح الأدب بنفحات شعره ، وحطم الموت يراعه وهو ممسك بها بين قرطاسه ومحبرته فى فترة مرض غير رفيق وضعف شيخوخة ما كدّرا من صفاء تلك القريحة اللماحة ، ولا خدشا مرآة ذلك الذهن المشرق الوقّاد .

وفوجئنا بنعيه بعد أيام قلائل جلسنا واياه على مائدته فى رفقة من صفوة أدباء مصر نتحدث فى شؤون الأدب ونعدّ للشعر مستقبلا ذهبى الاحلام ، فراعنى نعيه وجزعت لمصابنا فيه بعد أن فقد الشرق به ويحافظ ألمع كوكبين فى سماء الشعر انكدرا متعاقبين قبل أن يتم عامٌ دورته .

ورحتُ أسائل نفسي: « هل أدىّ شوقي رسالة الشاعر الى عصره ؟ » ذاك سؤال أحاول الآن أن أضع جوابه في حيرة رجعت بأسبابها الى قصر الزمن الذي مضى على انقطاعه عنا ونحن الناس نتأثر بحياة الحي الزائل ولو إلى حين ، وقد تلابسنا من حياته الماضية القريبة أحوال يكون لها في أحاديثنا وكتاباتنا أثر لا نفطن اليه اليوم وقد لا نقرّ أنفسنا في الغد على ما أصدرناه من أحكام واستسغناه من آراء .

ورجال الأدب في مصر لا يزالون في مضطربِ أفكارٍ لا تعرف هديها الى ما تصبو اليه من المُثُل العليا ، ولا يزال معترك الجدل حامي الوطيس بين دعاة المدرستين الحديثة والقديمة بل بين أنصار المدرسة الواحدة في تعريف مقاييس الشعر وتكييف صوره وتحديد ألوانه .

بيد أني أدفع برأي غير فطيرٍ نماه شعور بريء أقوت أحكامه دراسةٌ ترجع الى أدب لا يتعصب لقديم ولا لجديد .

* * *

من دلائل الشاعرية في الشاعر إفصاح بيانه عن فكرته ووضوح مراميه في شعره وأداء الفاظه لمعانيه أداءً وافياً لا اضطراب فيه ولا غموض .

فاذا وُفّق الى ذلك كله في أسلوب رشيق وديباجة صافية وسياق مرتب فهو شاعر بطبعه وسليقته .

وكان شوقي رحمه الله أقدر شعراء عصره فما ظفر بمعنى جيد الا وأفصح عنه بألفاظ مختارة تقع في الأذن موقع النغم الساحر والصوت الرخيم . فاذا ما كان المعنى مبتكراً رائعاً فقد نفذ بأنغامه وموسيقية بيانه الى قرارات النفوس وشغاف القلوب وهذا ما لم يتوفر في شعره كثيراً .

وديباجة شوقي أشرق ما تكون حتى لكأنك تقرأ المختار لفحول شعراء الجاهلية والاسلام ، وأسلوبه جامع لمحاسن الاساليب الشعرية البديعة وإن لم يبلغ شأو البارودي في قوة الحبك ودقة الاحكام .

يترسل شعر شوقي في سبعة جداول شعرية: (١) شعر المديح والرثاء و (٢) شعر الحب و (٣) الشعر الوصفي و (٤) الشعر الاجتماعي و (٥) الشعر التاريخي و (٦) الشعر الديني و (٧) الشعر القصصي . ونمر على شعر المديح لأن الشاعر انقطع عنه من أمدٍ بعيدٍ

وليس فيه ما هو جدير بالدراسة أو النقد ، وإن حوى ألواناً من الوصف والغزل والنسيب .

أما الرثاء فقد أجاد شوقي فيه وأبدع، بل لا أعدو الحقيقة اذا قلت إنه المتفرد فيه منذ كان شعر عربي الى اليوم ، أما شعر الحب فهو شعر تضج له النفس ساخطة وتشارك الوجدان في استهجانه والنفرة منه، والحق أن شوقي بعيد عن الحب بعد الباطل عن الحق وليس في بعضه الا القليل النادر الذي يترسل مع النفس ويرضى به الوجدان، وهو لا يعد في شعره الا بنسبة الماس الى حجارة الأرض. أما شعر الوصف فبعضه شعر تجديد والبعض الآخر شعر تقليد تغلب فيه الصنعة ويبدو التكلف واضحاً جلياً . ومن الغريب أن تجد للشاعر في هذا الباب صورتين مختلفتين كل الاختلاف : إحداهما تمت ببيانها وألفاظها الى الشعر العربي القديم والاخرى تتجه بمعانيها الى الشعر الغربي ، وقصيدته في شكسبير جمعت الصورتين فجاءت آية من آيات الشعر العصري الحديث . بيد أن شوقي لم يوفق مرة واحدة في وصف صورة من صور الطبيعة ، وهي في رأيي ينبوع صفاء الشاعرية وروحانيتها والمعين الذي لا ينضب للجمال والملهم الخالد الفن الذي يجدد بريشته وأصباغه شباب الحياة ويملأ كتابها من سحره وفتونه وعبقرية خياله ، وترى في قصيدة وصف الربيع أو غيرها ما لا تهتز له نفس زاولت مهنة الحياة الشعرية وشغفت بالفن والجمال .

أما الشعر الاجتماعي والشعر التاريخي فتفوقه فيهما تفوقه في شعر الرثاء ، وقصيدته في صدى الحرب العثمانية ويربو عدد ابياتها على الثلاثمائة من وزن وقافية واحدة تعد من معجزات الشعر الحديث . وهي ملحمة رائعة تفيض بشتى مظاهر الحماسة والوطنية والخوالج الانسانية في بيان متين ومعان سامية وألفاظ تسيل ماء وتؤجج ناراً .

أما قصائده في التاريخ فلا أرى شاعراً لحق غباره فيها وقصيدته في حوادث النيل أو سينيته الاندلسية أو قصيدة النيل أو غيرها تتحدى الزمن بخلودها .

أما الشعر الديني فقد كان لشوقي فيه نفحات طيبات وآيات رائعات وكثيراً ما ضمن شعره في مناسبات جميلة إيماناً قوياً بما أنزله الله من أديان وشرائع وكم تغنى بجمال السيد المسيح وتمجيد رسالته من حب وسلام وإخاء ، وأرى أنه برّ الأباصيري في قصيدته نهج البردة وله في ميلاد النبي (صلعم) قصيدة رائعة المعاني تفيض بموسيقيتها ومعانيها جلالا وجمالا وزهادة وتصوفاً .

ويُعدّ شوقي الشاعر الموفق فى هذا النوع من الشعر مما يدلنا على صفاء قلبه وقوى ايمانه . وأما شعره القصصى فلى فيه رأى وهو ان شوقى وإن كان من البادئين بوضع الحجر الأول فى هذا النوع من الشعر فى لغة العرب إلا انه اتجه ناحية واحدة فجعل ينضح من اناء التاريخ دون غيره فاخرج لنا كليوباترا وقمبيز وعلى بك الكبير ومجنون ليلى .

وأرى أن هذا النوع من القصص لا يفيد كثيراً فى ترقية مستوى الشعر العربى ولا يكسب الأدب مادة قوية ولا يعد من نفائس التأليف ، وأرى أن الشعر القصصى المنشود ذلك الذى يستقى خياله من نبع الحياة ويستمدّ وحيه والهامه من حوادث عصره وأخلاق ناسه وصور حضاراته ، غير أنى لا أغمط شوقى فضل نبوغه فى هذا المضمار ولا انقص من عظيم جهده وكفى أنه فى طليعة من وضعوا القصة العربية شعراً وفى مقدمة من أخرجوا الرواية من سفر التاريخ .

* * *

وأرى أن شوقى قد أدّى رسالة الشاعر الى عصره بقدر ما هيأه الله وأتاح له ذكاؤه وأدبه وعلمه وشاعريته . وإنْ قصّر شوقى فى بعض النواحى الشعرية كما أسلفنا القول عنه فجاءت دواوينه الثلاث خلواً من شعر الوجدان فهذا لا يفوّت عليه حسناته فيما بقى لنا بعد ذلك من شعره . وحسبه أن يكون شاعر الاجتماع أو التاريخ فهذا رديرد كبلنج شاعر الامبراطورية البريطانية لا تجد الانسانية فى شعره ظلا تتفيؤه أو نبعاً تبل من مائه صدى أحشائها ، شعرٌ لا أثر للوجدان ولا للعاطفة الانسانية فيه ومع هذا فهو شاعر الامبراطورية وحامل جائزة نوبل . فما لنا اذن نستعدى على شوقى الأقلام وليس من شوقى كثير لدينا ؟

أجل ، كان شوقى مقلداً فى بعض شعره ولكنه كان منتجاً وقد أردناه أن يبدل نهجه فى الشعر ويبدأ من حيث بدأنا نحن ولكنا لم نذكر أننا ابتدأنا من حيث انتهى هو !

لقد أدّى شوقى رسالته إلى عصره غير مقصّرٍ ونفض راحتيه من هذه الدنيا ، وأتم رحلته فى الحياة ، فليؤدِّ كلُّ شاعرٍ منكم رسالته ولتكونوا مخلصين للأدب والفن فان فى أعناقكم أمانة القادة فوجّهوا الجيل إلى الكمال وأنبتوا منه لمصر نباتاً صالحاً ناضج الجنى طيب الثمر ؟

على محمود طه
المهندس

شوقى وأنداده

اذا كان الشعر حسب تعريف ليخ هنت هو موسيقى وإقناع وخيال وصور فهل هذه الاوصاف مجيعها فى شعر شوقى ؟ وهل هو شاعر كامل ؟ وما نصيب مطران من هذه النواحى ؟ ثم ما نصيب حافظ أيضاً ؟

أولاً ما هى الموسيقى فى الشعر ؟ ان اول ما نصف به شعر شوقى انه موسيقى وأول ما نصف به شعر الزهاوى مثلا أنه لا موسيقية فيه فما معنى هذا ؟ ذكرت احدى الجرائد الفرنسية مقارنة بين شوقى وبول فاليرى شاعر فرنسا الاكبر فى العصر الحاضر ، فذكرت هذه الموسيقية ، وهى على حق . ان شوقى وفاليرى اتفقا فى هاته الصفة ، ولا أعرف شاعراً سبقهما فى ذلك غير بودلير . هذه الموسيقية هى البراعة فى اختيار اللفظ ، وانسجامه ليؤدى المعنى المطلوب . قرأتُ فى ماكبث لشكسبير سطراً تقوله اللادى ماكبث ويدها ملوثة بالدم ، فشعرت ان روحها تهبط وتعلو كعاصفة ، شعرت من هذا السطر بنفس مجرمة تتنازعها الاهواء . وشعر حافظ موسيقية فقط ، والثلاثة الباقية : الاقناع والخيال والصور غير موجودة ، ومطران لا يعنى بالموسيقية كثيراً ، ويعنى بالخيال والصور .

والموسيقية من حيث أنها تحتاج الى اللفظ والصياغة والانسجام ، فهى اذاً فى حاجة الى الالمام العظيم باللغة ، هذا الى ذوق خاص لا يمكن اكتسابه بسهولة والى اذن تحسن الاستماع وتمييز الانغام !

ولا بدع انه ليس من موسيقية فى اللفظ كموسيقية القرآن .

أما الاقناع ، فهو قوة خاصة فى الشعر ، بحيث يضطرك الشاعر الى متابعته ، والى السير وراء رأيه والايمان به ، ويملك عليك مشاعرك ، بدون أن يملّك ، او يشعرك انه يقودك ، وأنت تتبع ساحراً جباراً لا خلاص لك منه .

ولعل المثل الأعلى فى ذلك هو الشاعر راسين . أما شوقى فقد كان على جانب كبير من هاته القوة ، وإذا اقتنع هو نفسه ، وراح يدافع عن قضية هى جزء من حياته او حياة أمته ، وراح يصف شيئاً له فى نفسه مكانة ، فانه احياناً يبلغ الذروة ، ويصعدك معه ، الى حيث تقتنع بما رأى وتؤمن بما حدثك عنه .

اما الخيال ، فهو الناحية التى قصر فيها شوقى ، وأبدع فيها مطران وانعدمت من شعر حافظ ، ومن الخيال مايسمونه باللغة الانجليزية Fancy وفى هـذا يجود شاكسبير ويمتاز أو لايشق له غبار ، ولا أدرى مقارباً له فى الادب العـربى الا فى قصيدة شوقى حيث يخاطب توت عنخ آمون شاعره بنتاءور ويشكو له ضجة الموسيقى حول قبره :

مصر الفتاة لم توقّر جدّها دقّتْ وراء مضجعى جازبندّهـا

فهذه الروح الساخرة التى يداعب بها توت عنخ « حفيدته » مصر ويشكو بها ضجره لانها تضرب جازبندّها خلف قبره ـ هذه الروح التى تكسو الحبيب ، او البطل الذى نتكلم عنه ، ثوباً من السخر الرقيق ـ هـذه قليلة ، قلة متناهية فى الشعر العربى ، كثيرة فى شكسبير وكولردج وبيرون . على ان الخيال واطلاق العنان للتصورات العالية لا للاستعارات والكنايات اللفظية كثير فى شعر مطران ، يزخر به ويعلو الى آفاق هائلة . اما حافظ فلا خيال له وذلك لحرصه على الموسيقية فقط ، ولعدم المامه بالادب الغربى .

اما الصور الشعرية فقليلة كذلك فى شعر شوقى : نعنى بذلك انك تقرأ قطعة للشاعر فلا تملك الا ان ترى الشيء مرسوماً أمامك بوضوح جسماً قوياً بارزاً . وشعر شوقى الاخير موفق فى ذلك ، ظاهر فى شعره المسرحىّ . أما شعره الأول فى المديح وفى الغزل الذى يبدأ به قصائده فهو بالطبع ألفاظ مرصوصة مصوغة لا تؤدى صورة ولا ترسم شيئاً . والمشهور عن شكسبير ان الفرق بينه وبين غيره من الشعراء ومؤلفى الروايات المسرحية ان كل لفظة ترسم صورة ، فما بالك بالسطر او بالقصـيدة ، واننا فى اذهاننا نختزن ألفاظاً وهو يختزن ويبرز صوراً واضحة قوية ! ويقول اكبر نقاد المسارح ان المؤلف المسرحى الذى يملأ روايته بالالفاظ التى ترسم الصور بسرعـة فى ذهن الجمهور هو الذى يظفر باكبر قسط من النجاح .

وهـذه الميزة كانت على أتمها فى شعر ابن الرومى : خـذ مثلا قصيدة حريق بغداد ، وفى شعر البحترى احياناً : كقصيدة الايوان .

أما مطران فى شعراء العربية فهو ممتاز فى هذا : فله قصائد منفردة منقطعة النظير فى الصور ترسمها وتنقلها الى الاذهان . خذ مثلا قصيدة فتاة الجبل الاسـود ، أو قصيدة الجنين الشهيد .

فانت ترى فى الختام ان شوقى تميز بكثير من صفات الشاعر الكامل ، ولو مدّ الله فى أجله واستمر فى المنهج الذى انتهجه أخيراً لبلغ مدّى لا يُجارىَ . وبارك الله فى مطران ، وفى أدبه المشرق العالى المطبوع بطابع الخلود ؟

ابراهيم ناجى

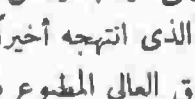

جولة فى أدب شوقى

قد تقسو الحياةُ على الأديب فتلفظه وتئد من نواحى عبقريته : ذلك بأن كل ذى نعمة محسود ، والناس أعداء ما جهلوا فلا يزال يتنقل فى سر من الحياة على غير مسمع من الناس يتبرم بالحياة ويزهد فى الدنيا ويتهم الفضيلة ويتجنّى على الأدب . فاذا أراد نفسه على الوصف لم يجد منها غير مرآة صدئة ونفس لاغبة وخيال لايتراءى غير أشباح مبهمة . فاذا انتقل إلى المدح لم يجد خلافاً حسناً بين القلوب المدخولة المُضِبّة له على حقد فيأتى بالمتكلف المسترذل . والجانى عليه فى ذلك بيئته وجفاف الثرى بينه وبين قومه . على هذا النحو درج الالوف من الادباء وقضوا فما نبه لهم ذكر ولا عظم لهم خطر .

وقد يولد الأديب فى بيئة رافهة ناعمة لا يتصل بذنابى الناس وأوشابهم فاذا تناول بؤس الحياة وشظفها نزل إلى لُجّةٍ لا يهتدى إلى مناطها ولا يسبر غورَها وعزت عليه الحقيقة ونضب أمامه الخيال . وهكذا تستطيع — لو حاولت — أن تتلمس للشاعر مهما سمت منزلته سقطات وهفواتٍ بل نواحى مبتورة لا يمضى فيها المجيد فى غيرها حتى يكون ناظماً متشاعراً .

أما شاعرنا فقد طُبع على غرار خاص ونشأ نشأة متباينة المنازع فواتاه التوفيق من يوم مدرجه ، وأتاه التوفيق لأنه كان أديب الخاصة بل سمير الملوك والأقيال فنبت كما نبت ابن المعتز : بديع الوصف ، رائع التشبيه ، سامى الخيال ، شريف العبارة ، جيد الأسلوب ، متين السبك ، تحسّ حين يطالعك شعره أنك فى حضرة العظيم . يظهر لك ذلك بوضوح حين يذكر السيدة مريم طريدة قومها فيأبى إلا أن يجعلها خيالُه السامى فى صولة ودولة وحاشية لاتجدها لغير الامراء والملوك إذ يقول:

« ضربت فى طول الأرض وعرضها ، يوسف هاديها وجبريل هاديها ، والقدس ناديها ، والطهارة أرجاء واديها » . وتراه فى نجائه لأبى الهول يتصور فيه سمير الدهر ونديمه ومناجى العصور حيث يقول :

أبا الهولِ أنت نديمُ الزما نِ نجيُّ الأوانِ سميرُ العُصُرْ

ولو رجعت البصر فى رائيته فى الانقلاب العثمانى وسقوط السلطان عبد الحميد لرأيت من شوقى عظيما يستعرض اعمال عبد الحميد استعراض من يحاسبه على أعماله فى عَتْبٍ عليه كأنه ندٌّ له فى جلاله وجبروته بعد أن قدم لعتبه هذا وصفاً ليلذ قلما يتفق لشاعر مثله .

شاعرية شوقى

ومن ينكر على العظيم عبقريته ويجحد فضله وقد نفخ فى الشعر من روحه وأمدّه من وحيه فأيقظ الأدب العربى وخلع عليه خلعاً غربية موشاة بثقافة جامعة فكان الابن المتحضر البار الذى أرضى القديم وأنصف الجديد فشعر شوقى صورة ناطقة عن عبقرية مخلده . كثرةٌ فى إجادة وابتكار للمعانى المحدثة مع إصابة للرأى فى كثيرها . وهو فى قوله مصور بارع يتابع الوصف متمهلاً مترفقاً فى موضع الرفق ، ولا أدل على ذلك من شعره الضنائى الذى يكاد يسيل له صلد العواطف وتَنْماث له الجوالح مما سار وتناقله الناس وتغنوا به وهو رقيق فى عتبة حزين كل الحزن فى رثائه كأنما يواسيك بأفلاذ قلبه فتراه يناجى اسماعيل باشا صبرى نجاءَ تحسّ فيه باللوعة يضطرم نارها فى قلبه يستحلفه فيها بعهوده القديمة وعوارفه إذ يقول .

قلْ لى بِسابقةِ الودادِ : أقاتلٌ هُو حِينَ يَنْزلُ بالفتى أمْ شاف ؟

وتراه يأتى على ذكر العلة التى انتابته حين يقول :

لجَّت على الصَّدْر الرحيبِ وبرّحَتْ بالكاظم الغيظِ الصفوحِ العافى
ما كانَ أقْسَى قَلْبَها مِنْ عِلةٍ تعلقَتْ باكرَم حَبَّةٍ وشِغافِ

ذلك ما تحسّ به فى وجده على أديب رثْدِ له .

وتراه يشتد فى موضع الشدة فيخرج لك صوراً حسية تكاد تلمسها باليد : صوراً لها قوة الأخذ ومتين التناسق والترتيب . ولا غرو فالعقل الراجح والطبع الملهم والتمكن من القريض كل أولئك كانت عوامل مجتمعة على موافاته بالحكم الرائعة وبث الحمية واستنهاض الهمم فى أسلوب راقٍ ممتعٍ .

اذكرْ له إن شئتَ مثال التضحية وكيف أنها أساس الحرية وبها توطد العروش:

تاجٌ ترَى فيه إذا قلَّبْتَهُ جُهْدَ الشريفِ وهِمَّةَ الصُّعْلوكِ
خَرَزاتُه دمُ أُمَّةٍ مَهضومةٍ وجُهودُ شعبٍ مُجْهَدٍ مَنهوكِ

وتراه يبدع فى ضرب الامثال للجاهل الاحمق إذ يقول :

يا طيرُ والامْثالُ تُضْرَبُ لِلَّبيب الأمْثَل
دُنْياكَ مِنْ عاداتِها ألاَّ تَكونَ لأعْزَلِ

وما أحرصه على أن يكون باحثاً عن الحقيقة ولكن فى مناط العقل ، فتراه فى وصف نابليون يبالغ ولكن فى احتراس إذْ يقول :

كِدْتَ مِنْ قتْلِ المنايا خبرةً تعلم الآجالَ أيانَ تحينْ

وإذا كان لنفس الشاعر خطرات وجموح تندّ عن الحقيقة وتعجب بالخيال لأنه الخيال فقد كان الرجل كأنما أعجب بقول القائل :

وأخفتَ أهلَ الشّركِ حتى أنه لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخلقِ !

فكان عند هذا الخيال الشارد يجاريه بقوله :

تُعَلِّمُ حِكْمَتُه الحاضرينَ وتُسْمِع فى الغابرينَ النُّطَفْ !

شوق الأول

وما كان الفقيد ليجحد نعمة تقلب فى اكنافها وجر مطارفها فى قصر مولاه . وما كان ليرضى بولائه له كسائر رعيته فحسب دون أن يصوغ له بُرُدَ الثناء فى كل مناسبة ، بل رأى أن يقف شاعريته التى كفلها مولاه وأحاطها بحدبه ورعايته على البيت الكريم وآله .

وما كان لشاعر مهما سمت بيئته وزكت أرومته أن يتخذ لوناً واحداً فى معظم شعره يستطيع فيه أن يرازم ويباين فى عباراته ويجدد فى أساليبه حتى يأخذه الأين ويعيا بما أخذ . أما شوق فقد خضع لهذه النظرية على الجملة فى دوره الأوّل ولكنك تحسّ بروح عالية وعبقرية وفية تطالعك فى شذرات تَقْدُرُ فيها ملكه الشاعر وتتوسم لهذا الشعر اليافع حياةً أحفل وأروع . ذلك اللون من الثناء والمدح

والوصف الراقى الذى قدَّمتُ لك قد انتظم الجزء الأول من ديوانه فى جل منظوماته إذْ كان يتلمس لها السبيل ويستطرد اليها فى كل مناسبة .

شوقى الثانى

حتى اذا تطور الزمنُ وعصفت بالبلاد هوجُ الحوادث لفَّتْ فيما لفَّتْ هذا الشاعر وكان ذلك بداءة فتح جديد لشوقى الجديد .

على أن ذلك الشيخ الشاب انما كانت تسعده الحوادث ويعده حدثان الدهر فى أخريات أيامه . وتلك فرص إن كانت لم تواته فى مقتبل حياته فانها أَمْلَتْ له حتى يستجمع قواه ليخرج لنا درر المنظومات ومنظومات الدرر موسومة بطابع جديد يتلاءم مع نهضة فكرية علمية ، فما كان لشوقى الموالى للبيت الكريم وآله أن يظل قابعاً فى مجثمه والزمن يمر من حوله سراعاً دون أن ينزل منه فى المعقد والإزار . بل آثر أن يمرح فى جناب الأدب الخصيب، فتفنن ما شاءت له روحه الفياضة وما عنَّت له شاعريته حيث كانت تدفعه بعنف إلى مطابقة الحياة فى ألوانها ، وإلى موافاة كل حدث جَلَّ أو صغر بخلجات نفسه ووحى وجدانه وشعوره الحى نحو نهضة العالم عامة وأمته خاصة، فترى له طاقات ومجاميع من نفثات قلبه فى المؤتمر الشرقى الدولى ، فى مشروع القرش ، فى تخليد ذكرى الدرويش ، فى نجاء توت عنخ آمون ، فى خلع السلطان عبد الحميد ، فى الدستور الجديد ، فى مؤتمر الائتلاف ، فى كل لون من ألوان الحياة التى لايستوعبها الحصر .

وما كان للشاعر المفرد أن يكثر كل هذا الاكثار فتكثر عليه المآخذ وتتخلف بالرغم عنه سواقط فى عجلته هذه ويكون من التاريخ موضع البحث والتمحيص لولا أن الفقيد لم يشأ أن يخدع العالم فى شاعريته وأن يحتجن دون الناس ما هم فى مسيس الحاجة اليه فخاض غمار الأدب مدجَّجا بالعزيمة مليئاً بالثقة من نفسه يحاول أن ينهض بالأدب وحده ويؤثر أن يتحمل أعباء طوره فكان عصراً حافلا بالأدب وحده .

نثره أخيراً

على أن رَبَّ القريض أنف أن يكون صاحب راية القريض بينما تخفق الراية الأخرى فى العُدْوَة الثانية لغيره. كبر عليه ذلك فرأى أن يَلِجَ بابه ولوجاء مصلياً

وارتاح إلى ثرائه وذيوع شعره وإشادة الدنيا بذكره فاستمدّ المعونة من قريضه لمنثوره وآتى بشذرات صاغها اسماطاً وقلائد، وهى وإن كانت فى جمهرتها قوية حفيّة بالاكبار إلا أنه كان يركب أحياناً متن الاعتساف فترى الماء الصافى السلسال الذى تتذوقه فى شعره يكاد يغيض ، وترى تقارأ بين مسجوعه فى قوله فى الموت :

« وإذا الملك والسوقة سواء . حقيبة المنية كل يوم فى ركاب ، من مناكب ورقاب ، تحمل الشيب والشباب الى رحى البلى فى اليباب ، فيدور عليهم الدولاب ، فاذا هم حصى وتراب ! »

حفله بالحوادث التاريخية

أما اضطلاع الرجل بالتاريخ والمامته بالعلوم فكانت جل عنايته فى شعره ونثره فتراه يطالعك فى مستهل قصيدة بقوله :

اللهُ أكبرُ كم للفتحِ من عجبِ يا خالد التُّرك جدّدْ خالدَ العربِ

وتراه ينتقل فى موضع آخر يذكرك بحديث يوشع وشمسه بقوله :

قِفى يا أختَ يوشع خبرينا أحاديثَ القرونِ الغابرينا

ثم هو فى موقف آخر يبيح للعالم الضليع البحث والتمحيص ، يشبهه فى ذلك بأهل بدر حيث يقول : « والعلم بدرىٌّ أُحِلَّ لأهله ما يصنعون » .

ولم ينس أن يغترف من التاريخ الحديث ما يضمنه شعره المحدث حيث يقول فى رثاء نابليون :

حول استرليز كان الملتقى واصطدامُ النسر بالمستنسرينْ

ذلك ما نعدُّه مخلداً للتاريخ وما نَعُدُّ التاريخ مخلداً له من ناحية أخرى .

إلا أنه قد يُحسُّ الشاعر بثورة فى نفسه ووخز ضميره تناله منهما اللوعة والحسرة فتفيض نفسه بالحوادث يستروح بها فى كلامه ويخفف من لواعجه فتراه يسرف فى ذكر سلسلة منها للشىء الذى يتناوله حتى ليداخلك الشك أنه موكل بذكر فذلكة تاريخية لهذا الشىء ، وماذلك الا نفثة المصدور وزفرة الملىء. فتراه يسرد لك فى وصف قناة السويس بعد مطلع بديع شيئاً عن اسمٰعيل والنقاء الأحمر بالأبيض وموسى الكليم ويوسف وروح الله والعذراء والاسكندر وعمرو بن العاص ونابليون . وتراه فى موطن آخر يسوق هذا الحشد حين يأتى على مناجاة الأهرام يقول : « فى هذا الحرم

درج عيسى صبياً ، ومن هذا الهرم خرج موسى نبياً ، وفى هذه الهالة طلع يوسف كالقمر وضياً ... »

مسرحياته

عرف الناس فى شوقى الشاعر النابه المجدد فذهبوا يلهجون بذكره ويكبرون شعره ونثره حتى ذهب بهم الغلو الى حد تقديسه وتمجيده وكلما طالعهم بقول عَدُّوه نسيج وحده وبهرتهم جدته فأنستهم قديماً قِيلَ وراعتهم صَبْوَةُ الانتصار لشوقى فرانت على قول غيره من الشعراء السابقين . وما كان ذلك إلا حافزاً للرجل يهيب به إلى الدأب والاجادة ليحقق للتاريخ ما أشاد به قومه ، فأخرج الغريب من الروايات المسرحية مما عُدَّ مفخرةَ العصر الحديث ورأى أن قد سبقه الى فكرته سيد القريض الشاعر الضليل وقفى على نسجه شاعر الحب والغزل ابن ابى ربيعة وترسم من أتى بعدهما طريقهما . رأى ذلك ثروة حازت الاعجاب فجعلت لهم ناحية مفردة فى التاريخ فعمل على ان يضيف الى هذا التراث ثروة خصبة حضرية عصرية فاستعدى على المجنون شاعريته وخياله تترضّاه فى ان يخرج من شعره الخالد قصصاً تمثيلياً مفرداً فى بابه فكان قريضاً أرضى المجنون برصانته وجدته وكثرة مائه ، وما عتم أن تابع ذلك برواية قمبيز التى قامت لها قيامة النقاد . فلم توهن من عزمته فأخرج رواية عنترة وأميرة الاندلس وما كان حين أخرج مصرع كليوباتره أو على بك الكبير إلا مخرجاً للقصة الدرامية فى مغزى رائع التأثير أخّاذ بالنفوس .

تفاعله الأدبى

قلما ينبه العظيم فيُسْعِدُ الامة بنباغته ويَسْعَدُ هو على حساب ثروته إلا أن يكون فوق اجادته لما أخذ به نازلا من أهل الأدب عند ما يرضى الناس والأدب ، وذاهباً مع الساسة والمفكرين بما يرتاح له الفكر وتصبو اليه النفس اذا فنيت فى حب الوطن . وما كان أخلق شوقى ان يكون ذلك الانسان فقد سعد لا بالثراء يحوز منه الكثير لأنه ما طمحت نفسه إلى ثراء المال وحده بل ليكون رب الدولتين ، وكأنى بروحه الجياشة بالآمال وبهمامة نفسه التى ما فتئت تلج به ان يكون فوق ما يمكن ان يكون تدفعه دفعاً الى الغاية التى لا يقدر مناطها غيره فما وجدناه متطامناً مرتاحاً لما وصل اليه من إمارته لدولة الأدب فى جميع ألوانه ، وما قنع الناس منه على ثرائه وجدته بما أخرج لأنهم رأوا فيه معيناً لا ينضب فسعدوا وسعد ، وما أدوم سعادتهم وما أخلد سعادته ؟

محمد رزق الرهشاله

احمد شوقي

ذكريات [1]

لقد يكون من مفاخر حياتي الصحفية أني لقبت احمد شوقي بك في سنة ١٨٩٩ على صفحات « الاهرام » وأنا حديث العهد بتحريرها بأمير الشعراء ووصفت قصائده « بالشوقيات » ، وكانت « الاهرام » يومئذ الميدان الوحيد لخياله الراقي . وكان المرحوم صاحبها يشارة تقلا باشا الذي رثاه احمد شوقي بالبيت المشهور الذي ذهب أحد شطريه مذهب المثل : « رجل مات والرجال قليل » من أكبر المعجبين بشوقي وبشعره وبذكائه وحصافته .

ولا أدعي جواز اطلاق هذا اللقب على شوقي أكبر شاعر في عصرنا على ما اعتقد وقد يكون أكبر الشعراء في العصور الخوالي أيضاً لأنه جمع بين الحضارتين القديمة والحديثة والأسلوبين العتيق والجديد ووفق بين الطارف والتليد . ولكن متابعة الكتاب والادباء للاهرام في ذلك حتى اليوم أعطت للقب مكانته وأحلته المحل الذي أريد منه وأريد له وكذلك وصف قصائده ، ولما ظهر حافظ ابراهيم بشعره الرائع أطلقت عليه « الاهرام » لقب « شاعر النيل » فأقر الكتاب والصحف ذلك اللقب. ولا أدري من الذي لقب خليل مطران بعد ذلك بشاعر القطرين وامام الصناعتين ولكن أدباء تلك الأيام وشعراءها كانوا يضعون احمد محرم في هذا الصف صف الثلاثة ، وكان المرحوم اسماعيل باشا صبري الذي كانوا يلقبونه بحق وصواب باستاذ الشعراء يتغنى بشعر هؤلاء الاربعة ويطيب له التحدث عنهم ، واذا نظم أحدهم معنى مبتكراً يهتز له طرباً ويهزّ به مدحاً وترديداً . وكان يقول إن شيطان الشعر يحلق بشوقي حتى يغيب عن مداركنا وخيالنا . أما السبب الذي دعا الى تلقيب احمد شوقي بأمير الشعراء فهو أن الخديوي عباساً كان يهمل شوقي بعض الاهمال لاعتقاده ، بل لأنهم أدخلوا على نفسه ، أن أحمد شوقي « شاعر » فقط . وانه هو بحاجة الى رجل سياسي لما كان بينه والانكليز من الكفاح والجلاد فاجتمع لازالة هذا التوهم من صدره المرحومون بطرس باشا غالي (وقد كانت به نزعة للأدب والادباء) وبشارة باشا تقلا ومصطفى باشا

(١) آمل من القراء اغتفار كلمة الانانية لان مجلة (ابولو) تطلب مني ملحة ذكريات شخصية بحتة .

كامل. وكان بطرس باشا يطلب من الخديوى أن يسمح له بتوظيفه شوقى فى الخارجية بضعف مرتبه الذى كان يتناوله من قلم الترجمة فى السراى، وكان بشارة تقلا باشا يعرض على سموه مثل هذا العرض ليوليه تحرير «الاهرام» فتأييداً لذلك وضع شوقى فى مكانه من الأدب وامارة الشعر الى أن قربه الخديوى وناط به كثيراً من المهام فقام بها خير قيام. فأولاه ثقته وقدمه على جميع رجاله وطرد من خدمته حسين زكى وزامر الذى قال صاحب «مصباح الشرق» يومئذ فى وصف خروجه من السراى: «إن خروج زامر من المعية ألذ من خروج البرغوث من الاذن». وبعد أن كان الكتاب يلقبون شوقى بأمير الشعراء أعطاه الخديوى بعد انعاماته الكثيرة التى غمره بها لقب «شاعر الأمير».

* * *

كان احمد شوقى بك يسكن داره فى حى الحنفى والشيخ زكى سند مؤسس «جماعة مكارم الاخلاق» يسكن فى حارة السقايين وكنت أسكن فى ذلك الحى. فكنا متجاورين وكنا فى كل صباح نلتقى فى الطريق فيذهب شوقى الى سراى عابدين والشيخ زكى الى مدرسة اليسوعيين للتدريس وأذهب أنا الى ادارة جريدة «المحروسة». فكان الكثيرون من الأزهريين الذين لا يصدقون ان خريجاً من خريجى مدارس فرنسا كاحمد شوقى يستطيع قرض ذلك الشعر الراقى كقصيدته فى الخديوى توفيق:

لك مصر يجرى تحت عرشك نيلُها ولك البلادُ عريضُها وطويلُها

وكقصيدته فى مؤتمر جنيف:

همتْ الفلُك واحتواها الماءُ وحداها بمن تقلّ الرجاءُ

وكلتا القصيدتين كان الطلبة يحفظونها. فكانوا يقولون أن الشيخ زكى سند صديقه هو الذى يساعده فى نظم هذه القصائد لما يرونه بين الاثنين من الصداقة ولاجتماعهما كثيراً لأنهما من حىٍّ واحدٍ.

كان شوقى لا يتعرض للسياسة فى شعره، فلما قربه الخديوى ووكل اليه الكثير من الشؤون السياسة تحولت قصائده من الخيال البحت والحكم والوصف الخ. الى السياسة التى كان يتأثر بها كمدحه السلطان عبدالحميد لأنه شاعر أمير مصر وحملته على رياض باشا فى حادثة الحدود وقد زار الخديوى الجيش وانتقد نظام إحدى الأورط فعدّ اللورد كرومر ذلك اهانة لكتشنر باشا مطلب من أجلها الترضية، وكان رياض باشا رئيس الوزارة فتبرأ من عمل الخديوى وذهب الى الفيوم حيث قابل سموه واستصدر منه

تلغرافاً الى كتشنر باشا يثنى فيه عليه وعلى نظام الجيش وكحملته على هذا الوزير عند افتتاح مدرسة محمد على الصناعية لأنه ألقى خطاباً قال فيه للورد كرومر أنه يعتمد عليه فى انجاح الجمعية والمدرسة . وقبل أن يطلع صباح اليوم التالى طلع شوقى على الجمهور بقصيدته التى يقول فيها :

كبيرَ السابقين من الكرامِ ... بُغمى أن أنالك بالمـلامِ
مقامُك فوق مازعموا ولـكن ... رأيت الحق فوقك فى المقـامِ
خطبتَ فكنت خطباً لاخطيباً ... أُضيفَ الى مصائبنا العظامِ !

وكقصيدته فى اللورد كرومر يوم وداعه وكانوا قد عقدوا له اجتماعاً فى الاوبرا ليتمكن من الخطابة . وحضر الاجتماع الامير حسين كامل فألقى اللورد كرومر خطابه الشديد اللهجة فذم عصر اسماعيل على مسمع من ابنه وحمل على المصريين لأنهم لم يقدروا عمله فى تحريره أصحاب الجلاليب الزرق ، فنظم شوقى قصيدته المشهور التى يقول فى مطلعها :

أيامُكم أم عهـد اسماعيلا ... أم أنت فرعون يسوس النيلا ؟!

فقابلها الرأى العام بالارتياح العظيم لان اللورد كرومر آلم المصريين فى كرامتهم حتى أن السيد حسن موسى العقاد الذى كان يقف فى وجه الخديوى مستنداً الى ذراع اللورد كرومر أرسل اليه تلغرافاً وهو يركب الباخرة من بورسعيد ضمّنه أشد اللوم للورد على كلامه القارص .

ولما عاد احمد عرابى من منفاه هزت روح عودته وهو على ماكان عليه من الكبرياء شاعر السراى شوقى فقابله بقصيدته :

صَغارٌ فى الذهابِ وفى الايابِ ... أ هذا كل شأنك يا عرابى ؟!

على أن تحول شوقى الى السياسة وتحول شعره اليها لم يحوله ولم يحول شعره عن بعض الصداقات العالقة بشغاف قلبه كصداقة المرحوم مصطفى كامل فانه رحمه الله قطع صلته بالسراى الخديوية بعد اتباع الخديوى سياسة الوفاق مع السير الدن غورست ووجه مصطفى كامل يومئذ كتاباً مفتوحاً على صفحات الصحف الى الخديوى وكان هذا الكتاب شديد اللهجة، ولكن ذلك لم يقطع ما بين شوقى ومصطفى كامل حتى أن شوقى كان المواسى الوحيد لمصطفى فى ابان مرض الموت وقصيدته فى رثائه من أروع الشعر . نظمها شوقى فى الليل ونشرت فى الصباح وذهب مذهب المثل قوله فيها :

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له إنَّ الحياة دقائقٌ وثوانِ

كانت الحادثة من الحوادث تقع صباحاً فلا يحل المساء حتى تذاع بين الجمهور وبقصيدة شوقي لأنه كان للحوادث تأثير شديد عليه يهز اعصابه ويستثير نفسه ويحفز خياله . وكان أكثر ما ينظم الشعر وهو ماش أو واقف أو جالس الى أصحابه يغيب عنهم بذهنه وفكره . فقلما يجلس الى مكتبه للتفكير وعصر الذهن ، فاذا جلس الى المكتب فلتدوين ما يكون قد نظمه واستوعبه فى ذاكرته . فبين سيكارة وأخرى يجد فكرته وبين كلمة وأخرى يجد الظرف الموافق لهيكل الفكرة وكان شديد الحذر ينتقى ألفاظه كما ينتقى معانيه ، لأنه كان شاعراً سياسياً فى كل أشعاره وفى كل أطواره الشعرية .

ولو أن قصائد شوقى ومنظوماته جمعت بالتتابع مع مراعاة زمن نظمها والظروف التى دعت الشاعر الى النظم وبيان ما فيها من اشارة وتلويح وتلميح لكان من ذلك فى نظرى وعقيدتى أجل ديوان ولكان هذا الديوان أصدق تاريخ لحوادث مصر منذ عهد الخديوى توفيق الى اليوم. وأما جمع ديوانه على الطريقة التى جمع فيها بعض شعره فى العهد الأخير فعمل لا يفى شعر شوقى مقامه من الشعر والتاريخ معاً .

ولربما كان الامر سهلا بعض السهولة اليوم ، ولكنه يصير مستحيلا بعد بضع سنين إلا إذا كان شوقى قد دون ذلك بيده كما كان يعد ؟

داود برقات

صورة من شوقى

لست متعنتاً ولا مسرفاً اذا قلت : ان شوقى آخر حسنة فى الشعر العربى جادت بها الطبيعة ، وسلبنا الموت اياها . ولم أرم بذلك القول باطلا وذلك لان الدنيا أصبحت عقيماً فى الرجال ، بل استطيع أن أقول إنها تستطيع ان تلد للنبوغ أعظم من اكثر و لندنبرج وغيرهما من أفذاذ المادة ، ولكن هيهات ان تطلع أفذاذاً من ابطال الروح والخيال السامى كشوقى ، لان الفن الخالص من المادة قد تقلص من هذه الدنيا وطغى عليه الفن المادى ، وان رجال الجمال من هذا الفن اذا اختزم الموت منهم واحداً فلن تعوضنا الدنيا عن مثله ، وناهيك بشوقى الذى كان فى الطليعة من هؤلاء الرجال .

ولستُ مسرفاً اذا قلت ان قصيدة شوقي في النيل أروع قصيدة عرفها الشعر العربي من لدن امرىء القيس بن حجر الى عصرنا هذا .

لست متعنتاً اذا حدثتك أن شوقي بزّ المتقدمين من أمثال أبي تمام و البحتري و أبي العلاء في عيون قصائدهم .

فقد جاري الاول في بائيته ففاته ، والثاني في سينيته فسبقه ، والثالث في فائيته فخلفه وراءه . وانك لجد مشدوه اذا علمت ان هذا الرجل الذي تحسّ وأنت تحادثه أنه نصف أوروبي يأتي بهذا الشعر الذي يعجز عنه هؤلاء الفحول في عربيتهم .

عرفتُ أمير الشعراء بشعره وكنت في الخامسة عشرة ، وكنت وقت ذاك في اقليم من الصعيد أجلس في أويقات الاصيل مع صديق من سني قبالة دارنا ، وكنت أحسّ بالشعر كما يحس طفل في سني ، وكنت أقرأ أنا وصديقي في الشوقيات فيفوتني اكثرها واتفهم أقلها ، ولكني كنت معجباً بشوقي كما يعجب الطفل بأبيه وكنت أروي منها أبياتاً لأترابي مجرّحة في عربيتها ورويها . ولا زال اعجابي بالرجل يكبر معي حتى طرحتني الطوارح وازتني السنون ، ولا زلت أذكر يومي السعيد يوم تقدمت الى أمير الشعراء للتعرف به ، وكان ذاك عقب قفوله من منفاه في سنة ١٩٢٠ . كنت في دار للخيالة رفقة أستاذ كريم ، من رجال الجامعة القديمة ، وكان الظلام قد بدأ يغشانا ، وقد أخذ دويّ الآلة في أزيزه منذراً بابتداء عرض الصور ، فاذا بصاحبي ينبهني الى رجل قصير ضاوٍ ممسك بعروة سترته ، يسير رافع الرأس ، وخلفه ثلاثة يميلون الى الطفولة أكثر من ميلهم الى الشباب ، ويقول : شوقي ! فتشوقت في كثير من الفضول وأدمنت النظر حتى حلّ الرجل في كرسيه يتبعه هؤلاء الثلاثة ، ثم عم الظلام مطبقاً وعرضت الصور ولكني لم أتبين منها شيئاً فقد ظلت نفسي منصرفةً الى هذا الداخل ، وأخذتُ أعمل الرأي ، كيف استطيع التعرف الى هذه الشخصية الفذة ؟ فقر رأيي على التقدم اليه في نهزة الراحة بين عرض الصور ، وأخذني زمعٌ شديد ، حتى أني لم أكاشف صاحبي ببغيتي ، فما تكشف الظلام حتى بادرتُ اليه تاركاً صاحبي مدهوشاً ، وكشفت له عن نفسي ، وأعلنت أني ممن ينظم الشعر ، وأود ان يسمع مني بعض ما قلت ، فتبسم رحمه الله ونظر الى كبير هؤلاء الثلاثة وقال : ياعلي ! ما مواعيد الغد ؟ فأجابه من ورقة صغيرة عنها . فالتفت اليّ وقال يسرني ان تزورني غداً في الرابعة بعد الظهر في المطرية . فسلمتُ شاكراً وعدت ، وحدثت صاحبي بما حدث فهنأني .

أشرق علىّ الغد ، وكان يوما صائفا ، وقد بكر الحر فى شهر مايو وحل الموعد فأدركتنى حيرة : هل أتخلف لمكان هذا القيظ لانى رأيت انه لا يليق ازعاج شاعرنا العظيم فى قيلولته ، أم أبادر بحثنى هذا الشوق الذى ينتابنى للمكث لحظة مع أمير شعرائنا ؟ فاعتزمت قطار الضواحى وعرجت على كرمة ابن هانى ، وأرسلت مع الخادم بطاقتى فدعانى رحمه الله الى الطابق الثانى ، فاذا أنا بهذا الشاعر الذى قد أتى بالمعجز يكاد لا يبين فى كرسيه اللين وقد انتضى عنه سترته . فرحب بى برقة أنستنى الفارق العظيم الذى بينى وبينه ، فاسمعته من نظمى قصائد استحسنها رحمه الله رقة منه وعطفاً.

ثم تحادثنا فى شؤون أخرى ، ولن اكذب الله فقد أدركنى شىء من خيبة الامل فقد كنت أحسب ان شوقى لا ينطق الا شعراً ، ولا يتحدث الا شعراً ، ولا يسير الا بالشعر فاذا به غير ذلك ، مثلى ومثلك ! اوكان يتنكب الشعر فى كلامه ولا يشير اليه فى حديث . وكنت احفظ من قصائده الكثير ، فكنت أسأله فى بعض معانى هذه القصائد فكان يجيبنى إجابة رجل لم يقل هذه القصائد ، ولم ينظمها ! فحضرتنى عند ذلك كلمة لفولتير ، قالها عن نفسه : وهى أنه عند ما كان يكتب يخيل اليه ان آخر كان يتولى ذلك عنه ، وكان يتهم نفسه عند قراءة كلامه !

ثم اتصلت بعد ذلك بشوقى اتصال ولىّ او قريب ، كنت ألقاه كل ليلة فأحسّ بروحه الشعرية تظلل المكان .

كنت اعرّج على مكتبه بين الخامسة والسادسة مساء ، حيث كنت ألقى ولديه وهما صديقان حبيبان لى ، وكنا لا نفترق ، وكانت هذه احدى حسناته الىّ رحمه الله ، فكنا نجلس يؤلفنا الشباب بمرحه ، وكنا نتنادر طوراً ونجدّ طوراً آخر حتى اذا أظلتنا السابعة طرق آذاننا صوت حذاء يحتك بالارض فنحذر جميعاً أنه هو ، فلم نلبث طويلا حتى يطل علينا ببسمة حلوة ، ما ذكرتها اليوم الا وجدت على قلبى منها غمزاً ، ثم يفيض معنا فى شؤوننا حتى تحسبه كأحدنا ، ثم ينقطع كل هذا فجأة ، ويرجع الى نفسه فيصبح كأنه ليس معنا ، فهناك تسمع غمغمة كأنها آتية من غور بعيد ، كما يقول أستاذنا مطران ، ثم لا يزال بين ذلك يمسح على جبينه بيده ، ونحن عند ذلك سكوت ، فاذا بلغ آخر مناجاة نفسه ، هبّ واقفاً وتركنا من غير ان يسلم أو يبتسم .

وكان رحمه الله لا يذكر ما نظمه من قصيد رائع فى زمنه الخالى . حدث أنى كنت أماشيه يوماً وكنت قد قرأت فى صبيحته قصيدة فى «عكاظ» نسبها صاحبها اليه وكانت القصيدة لمطران ، وهى فى بعلبك ، فحدثته فى ذلك وتلوت عليه مستهلها فقال : لا أعلم ربما تكون لى ، لأنى قد نظمت كثيراً . فقلت إنها لمطران وقد التبس على صاحبه «عكاظ» ، فأجابنى مبتسماً : لقد ضاعت على مطران المسكين ! ولم نلبث فى مسيرنا طويلا حتى طلع علينا صاحب «عكاظ» مسلماً ، فاجأه رحمه الله فى هذه القصيدة ، فأصر صاحب «عكاظ» أنها له ، وأن رقتها وسلامة لفظها أخلق به ، فأصررت أنا أنها لمطران ، وقد قرأتها فى ديوانه ، فاستطال علىّ صاحب «عكاظ» عفا الله عنه ، وألح فى تأييد رأيه ، فقال له : ياشيخ فهيم ، ارجع الى مصادر هذه القصيدة وتبينها فانى لا أحب أن أغصب أحداً حقه ؟ وانصرفنا ، فاذا بكتاب من صاحب «عكاظ» يعتذر فيه الىّ من الغد وقد أصلح ما تورط فيه من خطأ فى العدد التالى لظهور هذه القصيدة .

ولو شئت ان أعدد من حسنات شوقى الكثيرة لملأت كتباً فقد كان رحمه الله فريداً فى كل شىء ، فى خلقه وفى مروءته وفى برّه ، وان نظفر بمثله بعده .

طيب الله ثراه ورحمه رحمة تعادل ما أحسن به الى اللغة والأدب والخيال !

احمد محفوظ

شوقى امام التاريخ

شخصيته وحكمته المطبوعة

تمهيد

اتفق الى أن كتبتُ فصولاً مطولة عن شعر شوقى فى سنة ١٩٢٥ وهى فصول منزهة عن الغرض يجدها القارىء فى كتاب « الموازنة بين الشعراء » وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق النقاد المعاصرين . ويعزّ علىّ أن أصرح بأن جمهرة النقاد كانت من أصحاب الصحف الأسبوعية ، وكان شوقى عوّدهم التطلع الى مائدته الفاخرة وجيبه الثقيل ! وكانوا كلما احتاجوا الى « بره ومعروفه » طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه من نقائص وعيوب ، وكان الرجل يغار على شعره غيرة الكريم على عرضه ،

فكان يخرس ألسنتهم ، ويقصف أقلامهم ، بالهدايا والهبات . وقد ظن أولئك أولئك المساكين أنى أكتب عن شعر شوقى لنفس الغرض الذى يسوقهم ويحفزهم الى الكتابة عن شعره ، فكانوا يتقدمون الىّ ناصحين ، وكان نصحهم يتلخص على اختلاف ألوانه فى هذه الكلمة الطريفة : « ان شوقى لا يحترم من ينصفه ! »

والاحترام الذى يفهمونه هو السخاء والكرم والجود ، وهذا النوع من الاحترام يبدو لعينى بغيضاً ممقوتاً لا يتطلع اليه إلا سفلة الناس . وليت شعرى كيف يحتاج الرجل الى هبات الاغنياء ورغيفٌ واحدٌ يكفيه يوماً وليلة ، وليس بطن الانسان إلا وعاء حقيراً لا يستحق أن تذل فى سبيل ملئه النفوس ! ولكن هذا هو الذى وقع لنقاد ذلك العصر مع الأسف الموجع ، وقد استطاع أولئك المرتزقون أن يشوهوا النقد الأدبى أبشع تشويه ، وأن يقلبوا الحقائق الادبية قلباً كريهاً ، وأن يروضوا الجمهور على الاعتقاد بأن الرجل لا يقول كلمة الحق إلا مأخوذاً بغرض دفين.

وقد عرفتُ بالتجربة أن شوقى كان كما وصفه أولئك الواصفون لا يحترم من ينصفه ، وتجلت لى حقيقة ذلك فى سنة ١٩٢٨ يوم قدم طاغور مصر وأقام له فى داره حفلة استقبال . كنت يومئذ مدرساً بالجامعة المصرية وكنت صديقه وكان الدكتور طه حسين من خصومه الألداء ، فدعا الدكتور طه لاستقبال طاغور فى منزله ولم يدعنى ، لأن الدكتور طه كان موظفاً فى الدرجة الثانية وكنت موظفاً فى الدرجة السادسة ، وفرق ما بين هاتين الدرجتين كان من الأمور التى يفهمها جيداً أمير الشعراء الذى عودته الحياة الرسمية أن يحترم الرسميات ! ثم وقع يومئذ ما هو أبشع من ذلك : فقد كان دعا المسيو ساروليا ثم علم أن الجمهور هاج على ذلك الاستاذ لكلمة ندّت فى محاضراته بالجامعة المصرية ، فكتب اليه شوقى ينبئه بأنه « سحب الدعوة » وانه يرجوه ان يريح نفسه من الحضور لدار الكرم والجود « كرمة ابن هانىء » على أيامها وأيامه تحية وسلام !

وكانت هذه أيضاً فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق : فان تلك الهفوة لم تنقص تقديرى لشوقى ، شوقى الشاعر . أما شوقى الصديق فقد ثرت عليه ثورة عنيفة ، وعدتُ لا أقابله حين ألقاه مصادفة إلا بنفس الزاهد العيوف . وقد اتفق أن تلاقينا عفواً فى بهو الكونتنتال فى ربيع سنة ١٩٢٩ وكنت مع الدكتور منصور فهمى ، فسألنى شوقى عن انصرافى عنه ، فأجبته بكلمات فيها جفاء ، فالتفت الى الدكتور منصور وقال : إن شوقى بك والد الجميع ، وأنشد :

نميـــل على جوانبه كأنّا نميـل إذا نميل على أبينّا
نقلّبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرماً ولينّا

ثم توالت الأيام ، وكانت تزيد فى يقيننا بأن شوقى الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقى الذى يعرفه الناس كانسان اجتماعى يخطىء ويصيب بين الحق والواجب ، وكان أن رأيته لآخر مرة فى مسرح حديقة الازبكية يوم اجتمعنا لمعاونة الأديب محمود أبو الوفا ، وأسرعتُ اليه أحييه ، وأقبل أبو الوفا يسلم عليه . وكدت أصرخ فى وجهه : قبّـل يد الشاعر أيها الجاحد فقد شرّف قدرك بشعره ! وكانت عاطفة طبيعية : فقد كان شوقى فى ذلك اليوم وهو محطّم مهدودٌ يبدو لعينى فى وقار الصّديقين . ولما علمتُ أنه سيقيم حفلة شاى فى داره لأعضاء (جمعية أبولو) خطر ببالى أن أسعى لحضور تلك الحفلة ، خشية أن تكون آخر مرة يرى الناس فيها أمير الشعراء ، ولكنى رفضت أن أذهب بدون دعوة ، ثم كان ما مرّ بالبال صحيحاً ، وكانت آخر مرة يستقبل فيها شوقى رجال الأدب فى داره ، فياحسرتا على ما ضَيّعتُ من تلك اللحظات الطيبات !

لم أسىء يوماً الى شوقى الشاعر ، والحمد لله ، وإن كنتُ بعت حظى من شوقى الصديق ، وقد عانيت فى سبيل إعجابى بشعره نكبات عديدة ، فان ناساً كانوا يودون لو هدموه ، ومن أولئك الناس رجال احترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلكوا الى هدمه شتى الشعاب ، وكان الرجل عظيم الشاعرية حقاً وكان أصلب من أن تنـال منـه معاولُ الهادمين ، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخُلق والوطنيـة ، وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان . والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقود ، وستظل الاخلاق والوطنية دعامة يستند اليها ضعفاء النفوس والعقول ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع الى أدعياء الوطنية والاخلاق !

الخُلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فلنترك لشوقى أخلاقه ووطنيته ، ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ولنخص بالذكر شعر الحكمة الرائعة .

الحكمة فى شعر شوقى

اول ظاهرة واضحة فى شعر شـوقى هى التماس الشاعر لغرائب الحكمة فى جميع القصائد والمقطوعات ، وقد آثرتُ أن أقف هذا المقال التقديرى على تلك الظاهرة البارزة فى شعره وهى ليست ملحوظة فى شعر الكهولة وحده ، وانما ترجع الى ميل

فى نفس الشاعر منذ صباه . ومن الجميل أن يكون الشاعر حكيماً ، ولكن الأجمل ان ترد الحكمة عفواً بلا تكلف ولا افتعال . وقد وقع لشوقى ان عنّ اسلوب القَصَص أحياناً كثيرة فى سبيل الحكمة ، وغالب سياق القصائد رغبة فى تدوين الكلام الحكيم . من ذلك قصيدته الهمزيه التى أنشأها منذ نحو ثلاثين عاماً لتلقى فى المؤتمر الشرقى الدولى الذى انعقد فى مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ . وهى قصيدة مطولة وصف فيها مصر وحكوماتها وأهلها منذ العهد القديم ، وجرى القصَصُ فيها مسلسلا لم يعقه الا التنقل الى الحكمة التى كانت تطرد أحياناً الى نحو خمسة أبيات مع أنه كان يكفى أن تقع فى شطر بيت لتكون لفتة طريفة لاينقطع بها سياق الحديث . مثال هذا كلامه عما لحق مصر من الذل بعد عهد فرعون ، فقد وصل به هذه الابيات :

إن ملكتَ النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاءُ
يسكن الوحشُ للوثوب من الأسـ ـر فكيف الخلائق العقلاءُ ؟
يحسب الظالمون ان سيسودو ن وان لن يؤيّد الضعفاءُ
والليالى جوائرٌ مثلما جا روا وللدهر مثلهم أهواءُ

ثم عاد الى القصص فنظم ثلاثة عشر بيتاً عن رمسيس وسيزوستريس الذى وصفه بالتواضع وكره الكبرياء ، ودعاه هذا الى القاء الحكمة فقال :

يُولد السيدُ المتوّج غضّاً طهّرته فى مهدها النعماءُ
لم يغيره يوم ميلاده بؤ سٌ ولا ناله وليداً شقاءُ
فاذا ما المملقون تولّو ه تولى طباعه الخيلاءُ
وسرى فى فؤاده زخرفُ القو لِ يراه مستعذباً وهو داءُ
فاذا أبيضُ الهديلِ غرابٌ واذا أبلجُ الصباحِ مساءُ

وقد تطرّد الحكمة عند شوقى لغرض مقصودٍ فتأتى رائعة : مثال هذا قصيدته فى مشروع ملنر ، وهى قصيدة كان يجب بترها من الديوان لولا حرمة التاريخ ، ومشروع ملنر كان فتنة من أخطر الفتن ، وكان ناس دعوا له واستدرجوا شوقى الى الدعوة له ، فكتبت ألومه فى جريدة «المحروسة» ، فلما تلاقينا اعتذر بأنه قال القصيدة مأخوذاً بالحاح بعض الناس . والقصيدة دعوة الى الرضا بالضعف ، ولكنها من اظرف ما يُنوّم به الضعفاء ، ولم أجد فى حياتى كلمة باطل صيغت فى مثل هذا الاسلوب الطريف :

قد صارت الحالُ الى جدّها وانتبه الغافل من لعبهِ
الليث والعالمُ من شرقه فى هيبة الليث الى غربه
قضى بأن نبنى على نابه ملك بنينا وعلى خلبه
ونبلغ المجد على عينه وندخل العصر الى جنبه
ونصل النازل فى سلمه ونقطع الداخل فى حربه
ونصرف النيل الى رأيه يقسمه بالعدل فى شربه
يبيح أو يحمى على قدرة حق القرى والناس فى عذبه
أمر عليكم أو لكم فى غدٍ ما ساء أو ما سرّ من غبه
لا تستقلوه فما دهركم بحاتم الجود ولا كعبه
نسمع بالحق ولم نطّلع على قنى الحق ولا قضبه
ينال باللين الفتى بعضَ ما يعجز بالشدة من غصبه
فان أنستم فليكنْ أنسكم فى الصبر للدهر وفى عتبه
وفى احتشام الأسد دون القذى اذا هى اضطرت الى شربه
قد أسقط الطفرة فى ملكه من ليس بالعاجز عن قلبه
يا ربَّ قيدٍ لا تحبونه زمانكم لم يتقيدْ به
ومطلب فى الظن مستبعد كالصبح للناظر فى قربه
واليأسُ لا يجمل من مؤمن ما دام هذا الغيب فى حجبه

أليس يرى القارىء أن هذا باطلٌ صُوِّر فى أبرع اسلوب ؟ ومع هذا فالشاعر حكيم فى طبعه حتى حين يتأنق فى تصوير الأباطيل ، فاننا مهما رميناه بالدعوة الى الضعف واللين لا نستطيع ان ننكر أنه كان أحكم الناس حين قال :

يا ربَّ قيدٍ لا تحبونه زمانكم لم يتقيدْ بهِ

فان الزمان قد يفك القيود حين يرى فيها مغالبة لطبيعة الحياة وحقوق الاحياء كما بدأ يفعل فى معاهدة فرساى .

وكان يطيب لشوقى أحياناً أن يبدأ قصيدة بالحكمة ثم يطيل كأنما كانت الحكمة غرضه المقصود ، وأكثر ما كان يقع ذلك فى قصائد الرثاء . ومن اوضح الشواهد فى هذا ما ابتدأ به قصيدته فى كارنارفون :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابهِ ... كلُّ امرىءٍ رهن بلىً كتابهِ
أسد لعمرك من يموت بظفره ... عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع ... أو لم ينم فالطب من أذنابه
داء النفوس وكل داء قبله ... هم نسين مجيئه بذهابه
النفس حرب الموت إلا أنها ... أتت الحياة وشغلها من بابه !
تسع الحياة على طويل بلائها ... وتضيق عنه على قصير عذابه
هو منزل السارى وراحة رائح ... كثر النهار عليه فى إتعابه
وشقاء هذى الروح من آلامها ... ودواء هذا الجسم من أوصابه !

تلك ثمانية أبيات فى الحكمة يجد بعدها القارىء أحد عشر بيتاً حاول الشاعر صبغها بصبغة الكلام الحكيم ، وهذه المقدمة الطويلة تبدولنا مستثقلة بعض الشىء لأننا نلمح فيها آثار الافتعال ، ولكنا نقف خاشعين حين نصل الى قوله فى وصف ذلك العالم المجهول الذى يُسمَّى عالم البقاء :

يا صاحبَ الأخرى بلغت محلةً ... هى من أخى الدنيا مناخُ ركابه
نُزُلٌ أفاق بجانبيه من الهوى ... من لا يُفيق وجدّ من تلعابهِ
نام العدو لديه عن أحقاده ... وسلا الصديقُ به هوى أحبابهِ
الراحةُ الكبرى ملاك أديمه ... والسلوة الطولى قِوام ترابهِ !

وللقارىء أن يتأمل البيت الأخير فهو من أجود ما قيل فى وصف ما بعد الموت من قرار وسكون .

ولشوقى قصائد دعت اليها ظروف وقتية، ضمَّنها كذلك حِكماً وقتية ! فقصيدته فى العمال منظومة مفتعلة تحدث فيها عن الانتخابات البرلمانية لأن ظروفها اقتضت ذلك ، واسمع كيف يقول :

أيها الجمعُ لقد صر ... تَ من المجلس قابا
فكنْ الحرَّ اختياراً ... وكن الحرَّ انتخابا
انّ للقوم لعيناً ... ليس تألوك ارتقابا
فتوقع أن يقولوا : ... مَنْ عن العمال نابا ؟
ليس بالأمر جديراً ... كلُّ من ألقى خطابا
أو سخا بالمال أو قدْ ... مَ جاهاً وانتسابا
أو رأى أميةً فاخـ ... ـتلب الجهل اختلابا

والقوم الذين يعنيهم شوق هم الانجليز ، والعمال مدعوّون ان يراقبوا الانجليز حين ينتخبون النواب ، والمطلوب ان ينتخبوا الدكتور محجوب ثابت ! ولكن هذه المنظومة لم تخل مع ذلك من أبيات حكيمة سبقت اليها فطرة الشاعر الحكيم حين أخذ يقول :

انّ لى نصحاً اليكم إن أذنتم وعتابا
فى زمان غَرِبَ النا صحُ فيه أو تغابى
اين انتم من جدودٍ خلدوا هذا الترابا
قلدوه الأثر المعجزَ والفنَّ العجابا
وكسوه أبدَ الدهر من الفخرِ ثيابا
أتقنوا الصنعةَ حتى أخذوا الخلد اغتصابا !
انّ للمتقن عند الله والناس ثوابا
أتقنوا يحببكمُ اللهُ ويرفعكم جنابا
أرضيتم أن تُرى مصر من الفن خرابا
بعد ما كانت سماءً للصناعات وغابا ؟

وبساطة هذا الشعر من سِماتِ جماله وخصوصاً اذا لاحظنا انه يخاطب به طبقات العمال ، وخطابهم يفرض اليسر واللين فى العرض والأداء .

وليس من الغلو فى شىء ان نصرح بأننا معجبون أفتن الاعجاب بقوله فى هذه القصيدة يوصى بالادّخار اتقاءً لحوادث الأيام :

انما العاقل من يجعل للدهر حسابا
فاذكروا يومَ مشيبٍ فيه تبكون الشبابا
انّ للسنّ لهمّاً حين تعلو وعذابا
فاجعلوا من مالكم للشيبِ والضعف نصابا
واذكروا فى الصحة الدا ءَ اذا ما السقم نابا

وقد تبدو هذه الأبيات عاديةً عند من لا يتأمل فيما تشير اليه من اعقاب سيخوخة ذات الويل والعذاب ، ولنذكر دائماً انه يخاطب العمال الذين تغلب عليهم الغفلة عن مصائر من يهرمون وهم مُعدِمون .

ولا ينبغي ان تفوتنا هذه الفرصة فنهمل التنويه بهذه الظاهرة الغريبة فى حكمة شوقى : فان الرجل فيما يظهر من شعره ومن اخلاقه الحيوية كان مأخوذاً بالحرص على طيبات العيش ، وكان مشغوفاً بمعاودة التفكير فى الأخلاق المعاشية ، والأخلاق المعاشية هذه كلمة نراها انسب ما يُصوَّر به حرص شوقى على اسباب الحياة . وانظر قوله فى النحل :

مخلوقةٌ ضعيفةٌ من خُلُقٍ مصوَّرَهْ
يا أما قل ملكها وما أجلّ خطره !
قفْ سائل النحلَ به بأيّ عقلٍ دبّره
يجبْك بالأخلاق وهى كالعقول جوهره
تُغنى قوى الأخلاق ما تُغنى القوى المفكره
ويرفع الله بها من شاء حتى الحشره !

ليتأمل القارىء فى قوله « من خُلق مصوَّرة » ووصفه الأخلاق بأنها جوهرة كالعقول ، يريد انها هبة دقيقة خفية لا يعلم أسرارها غير علاّم الغيوب ، وهذا معنى لا يدرك الا بدقة التأمل ، فان الخلق الصالح خُلق العيش والحياة من الأسرار الخفية ، فكم ناس يُوَفَّقون فى حياتهم المعاشية ، وليست هناك أسباب ظاهرة لما رُزقوا من توفيق ، غير أن الخبير بأحوال العيش يعرف أن هناك دقائق نفسية وخلقية يتيسر بها العيش والرزق ، وإن كان أصحابها فى ظاهر الأمر من العابثين الماجنين . ولينظر القارىء ايضاً قوله :

أليس فى مملكة النحل لقومه تبصرهْ ؟
مُلكٌ بناه أهله بهمة ومجده
لو التمست فيه بطا لَ اليدين لم تره
تُقتل أو تُنفى الكسا لى فيه غير مندَره !

وهذه صورة صحيحة لحياة النحل ، وفيها عبرة لمن يرون اختلال الجماعات الانسانية ثم لا يعرفون أن أسباب ذلك الاختلال ترجع الى مهادنة اهل البطالة والفراغ.

* * *

لننتقل بعد هذا الى الحكمة الفطرية فى شعر شوقى ، ونريد بها الحكمة التى تقع فى ثنايا القصيد من غير تكلف ولا افتعال . وشواهد ذلك كثيرة ، منها قوله يخاطب الخليفة مهنئاً بالعيد :

أمثلك يمنع الأوطان خيراً ... وانت خُلقت من خيرٍ طباعا ؟
شجاعاً كنت فى يوم عصيب ... توفّيها المحبة والدفاعا
جنحتَ الى السلام فكان حلماً ... وقدماً زيّن الحلمُ الشجاعا
ومن صحب الحياة بغير عقل ... تورّط فى حوادثها اندفاعا

فان البيت الأخير وقع موقعاً طبيعياً لم يشنه تصنع الحكمة ولا اختلاق أسباب القول الحكيم .

وقصيدة نهج البردة تفيض بشواهد الحكمة الفطرية ، ولنقرأ هذه الأبيات :

رمى القضاءُ بعينيْ جؤذر أسداً ... ياساكنَ القاع أدركْ ساكن الأجم !
لما رنا حدثتنى النفس قائلة ... يا ويح جنبك بالسهم المصيب رُمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى ... جرحُ الأحبة عندى غير ذى ألم
رزقتَ أسمح ما فى الناس من خلق ... اذا رزقت التماس العذر فى الشيم
يا لائمى فى هواه والهوى قدَرٌ ... لو شفّكَ الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أنلتك اذناً غير داعية ... ورب منتصتٍ والقلب فى صمم !

والأبيات الأربعة الأخيرة مضمخة بعبير الحكمة ، وأرقّها عندى وأوجزها قوله :

« والهوى قدر » . وقد حدّثت الدكتور طه حسين عنها مرة فابتسم وقال :

« وعدٌ مكتوب علىّ ومقدّر على الجبين ! »

ولنقرأ قوله فى وصف الدنيا :

يا نفسُ دنياك تخفى كل مبكية ... وإنْ بدا لك منها حسن مبتسم
فضّى بتقواك فاهاً كلما ضحكت ... كما يفض أذى الرقشاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة ... من أول الدهر لم ترمل ولم تئم !
يفنى الزمان ويبقى من اساءتها ... جرح بآدم يبكى منه فى الأدم
لا تحفلى بجناها أو جنايتها ... الموت بالزهر مثل الموت بالفحم !

وقوله فى فخار الأصل بالفرع :

قد أخطأ النجم ما نالت أبوته ... من سؤدد باذخ فى مظهر سنم
نموا اليه فزادوا فى العلا شرفاً ... ورب أصل لفرع فى الفخار نُمى

وقوله فى شمائل الرسول :

محبة لرسول الله أشربها ... قمائد الدير والرهبان فى القمم
ان الشمائل إن رقت يكاد بها ... يُغرى الجماد ويُغرى كل ذى نسم

وقوله فى صاحب البردة :

مديحه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يشهد أنى لا أعارضه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم؟
وانما انا بعض الغابطين ، ومن ... يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

وقوله فى يتم النبى :

ذكرت باليتم فى القرآن تكرمة ... وقيمة اللؤلؤ المكنون فى اليتم!

وقوله فى المفاضلة بين محمد وعيسى :

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له ... وأنت أحييت أجيالاً من الرمم
والموت جهل فان أوتيت معجزة ... فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

وقوله فى حرب من لم يغن فى تقويمهم السلم :

لما أتى لك عفواً كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهّال والعمَم
والشر إن تلقه بالخير ضقتَ به ... ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم!

وقوله فى فضل الحرب :

دعوتهم لجهادٍ فيه سؤددهم ... والحرب أسُّ نظام الكون والأمم
لولاه لم ير للدولات فى زمن ... ما طال من عَمَد أوقرّ من دعَم
تلك الشواهد تترى كل آونة ... فى الأعصر الغُرّ لا فى الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروش واعتلت سُررٌ ... لولا القذائف لم تنلم ولم تُصَم

والحكمة هى قوله: « والحرب أس نظام الكون والأمم » ، ومابعدهذا الشطر جرى مجرى الشرح والتقرير ، وقوله فى فضل العدل على القوة :

واتركْ رعمسيس : ان الملكَ مظهرهُ ... فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرَمِ

ويطول القول لو مضينا نستقصى ما اتفق لشوقى من روائع الحكمة القطرية ، وانها لتقع لهسائغة مستطابة كالورد النمير. وانظر قوله يخاطب من شيدوا قبر نابليون :

حصّنوا ماشئتمو موتا كمو ... هل وراء الموت من حصن حصين؟!

وقوله فى ذكرى دنشواى :

شهداء حكمك فى البلاد تفرّقوا هيهات للشمل الشتيت نظامُ !

وقوله فى صلة مصر بالسودان :

فمصر الرياض ، وسودانها عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها

وقد جرى الشاعر فى هذه السبيل حين ألف رواياته المسرحية ، فليتصفحها القارىء ليرى صحة ما نقول .

* * *

وبعد عرض هذه النماذج فى صور الحكمة ومواقعها فى شعر شوقى يحسن بنا أن نقرر ان ذلك الرجل استقى تلك الحكم من تجاربه اكثر مما استقاها من مطالعاته: فقد عاش زمناً عيشة محرجة مضجرة لا يعرفها الا من ابتلى بمثلها أو بما يقاربها ، وماظن القارىء بمن يعاشر الملوك ويذوق ما فى كؤوس السياسة من علقم وصاب؟ لهذا نراه صادقاً غير متكلف حين يقول :

أخا الدنيا ، ارى دنياكَ أفعى تبدل كل آونةٍ اهابا !
وأن الرُّقط ايقظ هاجعات واترع فى ظلال السم نابا
ومن عجب تشيّب عاشقيها وتغنيهم وما برحتْ كعابا !
فمن يغترّ بالدنيا فانى لبست بها فأبليتُ الثيابا
لها ضحك القيان الى غبي ولى ضحك اللبيب اذا تغابى !
جنيتُ بروضها وردا وشوكاً وذقتُ بكاسها شهداً وصابا

زكى مبارك

﴿ لوحة الرخام التذكارية ﴾

وهى من عمل المثال المسيو سيمان وستُعلق فى كلية الآداب بالجامعة المصرية

ذكريات

عن حياة المدرسة ومدرسة الحياة

— ١ —

أود أن أرفع جانباً يسيراً من الستار الذى أرخاه تطاول الزمان على بعض النواحى من تلك العبقرية التى تألق نورها فى سماء العروبة حيناً من الدهر ، لا يقل مداه عن ١٩٠ يوماً و١٧٠٠٠ يوم ، أى من أول اكتوبر سنة ١٨٨٥ الى اليوم الرابع عشر من مشله فى عامنا الحاضر .

ولعلى أتمكن من إرسال شعاع ضئيل على ما أحرزه «شوقى» من سعود متواصلة، وتوفيقات متوالية ، منذ كان يتلقى العلم الى أن بويع بامارة الشعر .

سأقصر كلامى على طائفة قليلة من ذكرياتى عن الخالد « شوقى » فى حياة المدرسة وفى مدرسة الحياة .

— ٢ —

فلنرجع الى سنة ١٨٨٣ . وهى السنة التى تشرّفتُ فيها بدخولى الفرقة الرابعة (أى السنة الأولى بالاصطلاح الحديث) من مدرسة الادارة التى صححوا (فى سنة ١٨٨٦) اسمها هذا المغلوط فجعلوه مدرسة الحقوق (وهو اسم مغلوط أيضاً . ولذلك بيان ليس هنا محله) .

كانت المدرسة قد انتقلت من مقرها القديم المعهود فى سراى مصطفى باشا فاضل (بدرب الجماميز) الى دار البدراوى الباقية الى اليوم بشارع سوق الزلط (من قسم باب الشعرية) على مقربة من دار السادة الاشراف الاماجد آل العروسى، الذين آلت الى أحدهم مشيخة الازهر .

وفى العام التالى أقبل فوج جديد من التلاميذ لاحلول محلنا فى الفرقة الرابعة . وفى الذى بعده جاء فريق آخر ممن أسعدتهم المقادير بالانتظام فى سلك هذه المدرسة العالية.

من الطبيعى أن يتطلع أبناء الدار بشىء من الزهو والخيلاء الى الطارئين عليهم والمنضمين اليهم .

كان فى جملة الوافدين سنة ١٨٨٥ ، فتى نحيف نحيل ، هزيل ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلعة (تقريباً) ، بعيون متألقة (تحقيقاً) ولكنها متنقلة (كثيراً) . فاذا نظر الى الارض دقيقة واحدة ، فللسماء منه دقائق متمادية . وإذا تلفت صوب اليمين ، فلا يلبث أن يرمى ببصره نحو الشمال . وهو ، مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة ، هادىء ساكن وادع كأنما يتحدث بنفسه الى نفسه أو يتلاغى مع عالم من الارواح ما كان يلابسنا فيما نأخذ فيه من اللهو والمرح ، ولا يتهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الطعام .

هذه صورة مصغرة لاحمد شوقى عند أول عهدى به فى حياه المدرسة

— ٣ —

كان المرحوم الشيخ محمد البسيونى البيبانى من علماء الازهر المعدودين .

وقد آتاه الله بسطة فى الجسم والعلم فكان بديناً فطيناً ، وكان قصيراً فوق قصير لانه كان طويلاً مكيراً ، لا تخطئه النكتة البارعة اللاذعة . وكان يدرس لنا فنون البلاغة فى كتاب من تصنيفه هو « حسن الصنيع فى المعانى والبيان والبديع » . أما خارج المدرسة ، فكان متخصصاً بنظم القصائد فى مدح الخديو توفيق ، كلما حلّ موسم أو أطل عيد . وكان إماماً له فى الصلوات ، إلا صلاة الفجر .

ما لبث أن رأى فى تلميذه شوقى بواكير العبقرية وبوادر المواهب الربانية . فأنشأ الاستاذ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلها الى المعية السنية فالى « جريدة الوقائع المصرية » وغيرها من الصحف العربية . وكان شوقى ، ببساطة التلميذ الناشىء ، يشير بمحو هذه الكلمة وتصحيح تلك القافية وحذف هذا البيت وتعديل ذياك الشطر . والاستاذ يغتبط بقوله وينزل على رأيه .

وأحسن ما أذكره للاستاذ البسيونى ، رحمة الله عليه ، انه كان يتحدث بذلك الينا والى الفرق المتقدمة علينا (وفيها أصحاب السعادة عثمان باشا مرتضى وابوبكر يحيى باشا وعلى ثاقب باشا وشاكر بك احمد) دون أن تأخذه العزة بالاثم أو أن تغريه الكبرياء الملازمة للمدرّس ، بانكار الفضل الذى منحه الله للدارس .

فهذه أول سعادة أحرزها شوقى .

على أن الاستاذ البسيونى تحدث بهذا النبوغ الباكر الى صاحب العرش ، وأفهمه أن بين أتواب الصغير احمد شوقى براعة نادرة وذكاء رائعاً ، وانه خليق برعايته العالية ليكون زهرة يتضوع شذاها فى مشارق الارض ومغاربها .

وكانت هذه الشهادة من أكبر الاسباب التى حفزت الخديو توفيق فى سنة ١٨٨٧ الى إرسال شوقى على نفقته الخاصة لاتمام الدراسة العلمية فى باريس ولتغذية مواهبه الغريزية بما يراه فى الغرب من روائع البدائع . وقد تحققت له وفيه الآمال . فكانت هذه ثانية السعادات .

— ٤ —

عاد شوقى الى مصر .

فكان فى جملة المستخدمين فى ديوان المعيشة السنية . وظهرت له فى الخديو توفيق تلك الامداح التى سارت بها الامثال وتغنى بها الركبان .

لكن الله اختار الخديو توفيقاً الى جواره فى أواخر سنة ١٨٩١ .

وجلس على الاريكة ولده وولى عهده صاحب السمو الخديو عباس الثانى ، (فى ٨ يناير سنة ١٨٩٢) وكانت نزعته افرنكية ، لانه تلقى العلم فى « أكاديمية نزيانوم » بعاصمة النمسا ، أدرج وأمضى زمان الصبا فى ربوع أوربا . فلم يكن لصاحبنا شوقى سوق رائجة عنده ، بل أدرج فى سلة المهملات الذين يصح عليهم رأى المرحوم محمد بك عثمان جلال ، حينما كتب على باب غرفة شاعر الخديو إسماعيل : « إنما نطعمكم لوجه الله » .

هكذا ، أخذت منزلة شوقى فى التدلى وأخذ نجمه فى الأفول . حتى انه كان كثيراً ما يطلب متى أن أوصى به صديقى المفضال حمزه بك فهمى الذى كان انتقل من نظارة الداخلية الى رياسة « أقلام عربى ديوان خديوى » . وهو من أهل الفضل الصحيح ومن ارباب الأدب المتين ، وصل الله فى حياته .

— ٥ —

دار الزمان دورته .

وبعثت الظروف السياسية الخديو عباساً إلى أن يتذوّق الادب العربى . فعاد شوقى يتدرج فى الرجوع الى مكانته حتى وصل الى الذروة العليا ، بل الى الغاية التى

ليس وراءها غاية . فاصبح من اقرب المقربين ومن اصحاب الكلمة المسموعة والرأى النافذ .

وإذا بى أرى صديقى المفضال حمزة بك فهمى يخاطبنى فى استرعاء شوقى إياه ! والحياة مبادلة ، والدهر أخذ وعطاء .

— ٦ —

كان شوقى يسكن فى دار أبيه ، وهى التى انتهت اليها كل الثروة الضئيلة الباقية عن اجداده . فكان فى اول أمره يرى من تمام سعادته انه لا يجيئه الجابى اوصاحب الملك فى آخر كل شهر لمطالبته بكراء البيت ! وهذه الدار القديمة لا تزال قائمة وراء مسجد الشيخ صالح ابى حديد فى خط الخنفى . ويا بعد ما بينها وبين ما أنشأه هو من كرمة ابن هانى فى المطرية ، تتلوها الكرمات الثلاث فى الجيزة ، الى عش البلبل فى طريق الاهرام .

وكان بجوار تلك الدار القديمة رجل من اهل الثروة واليسار ومن ارباب الفضل الصحيح والوقار التام ، هو المرحوم حسين بك شاهين . رزقه الله بثلاث بنات هن عنوان الصيانة والأدب والكمال . وكان الشباب الذهبى من « ابناء الذوات » الذين ذهبت ثروتهم بفعلهم اوبفعل آبائهم الاقربين ، يتهافتون عليه . فيتأبى ويتعذر . ويقول لى وللمرحوم محرم بك رستم (صهر صديقى بل أخى الابر الاكمل لبيب بك البتانونى) ان هؤلاء المتهافتين لايخطبون الفتيات ، ولكنهم يترمقون الثروة الطويلة العريضة التى ستؤول الى كل واحدة منهن بعد حين قريب أو بعيد .

وشاء ربك ان يفوز ذلك الماجد المفضال بمصاهرة ثلاثة من افضل الناشئة المصرية : احدهم شوقى ، والثانى احمد بك عمر المهندس البارع النزيه المستقيم ، وثالث الثلاثة السرىّ المرحوم يعقوب حلمى بك .

هكذا أنعم الله على شوقى بالزوجة الصالحة بكل معانى الكلمة . فاستراح من متاعب الحياة البيتية ، ومن مصاعب العيشة المادية . فتفرغ لاستمداد الفيض النورانى وتلقى الالهام الربانى ، حتى تفرد بالبراعة التى ليس بعدها براعة .

وانبت لمصر ، والحمد لله ، نباتاً حسناً .

— ٧ —

من السعادات التى أنعم الله بها على « شوقى » سعادة لم يشركه فيها شاعر آخر . لم يهج احداً ، ولم يقل هجراً ، وكان من أكابر أنصار العروبة ومن اعاظم خدّام

الاسلام . بذلك تنطق قصائده وتشهد مواقفه . وذلك خارج عن دائرة هذه الذكريات ، فأترك الكلام عليه لغيرى .

بيد انى لا أرى بأساً بالاشارة الى القصيدة التى تقرب بها الى الله والى رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام . فقد نظم « نهج البردة » ونزّهها عن خرافات القصّاص وأكاذيب المُدّاح .

طالما عارض الناس « بردة » البوصيرى فى القديم وفى الحديث بمئات ومئات من المنظومات . لكن الصيت بقى لهذه « البردة » وحدها الى الآن . على أن قصيدة شوقى ، وإنْ لم تزحزحها عن مكانتها ، فانها قد نالت شرفاً ليس له نظير . ذلك بان الاستاذ الاكبر شيخ الازهر وخاتمة المحدثين فى مصر ، الشيخ سليم البشرى رحمة الله عليه ، مع جلالة قدره وسمو مركزه ورفيع مقامه ، قد تولى بنفسه وبقلمه شرح هذه القصيدة . وقد صاغها شوقى وهو لا يزال فى سن الفتوة . لكن براعته فيها جعلت شيخ الشيوخ يعرف فضلها ويقدر ناظمها ثم يتوفر على شرحها .

وما رأى الناس لذلك مثيلا قبل شوقى .

— ٨ —

عند ماجلس المغفور له السلطان حسين كامل على عرش مصر ، كان السواد الاعظم من ابنائها يعاديه ، بسبب الظروف السياسية التى احاطت ارتقاءه الى الاريكة . لكنه ما لبث بكياسته وحسن سياسته ان جعل كل من فى مصر مخلصاً فى ولائه ، يترنم بمحامده ، ويأسف على أن ولايته للأمر جاءت عند الاقتراب من نهاية العمر .

وتلك من نعم الله التى لا يظفر بها إلا الأقل من قليل من الناس.

فكان شوقى اشجع انسان بمصر فى ذلك العهد المملوء بالمخاوف والاهوال ، والذى كانت السلطة العسكرية البريطانية قابضة فيه بيد من حديد على كل النواصى والاقدام ، بل على الافكار والاوهام . فقد صارح شوقى السلطان حسيناً بما كان موضوع التهامس بين كل اثنين يلتقيان ، إذ أرسل اليه قصيدته المشهورة التى أشار فيها الى الحال القائمة بقوله :

(ان الرواية لم تتم فصولا)

والتى يقول فيها :

أأخون إسماعيل فى أبنائه ولقد وُلدتُ بباب اسماعيلا ؟

قامت قيامة السلطة العسكرية البريطانية لهذا النذير واضطربت كل الاضطراب، لانها خشيت أن تنتشر بقعة الزيت فى رقعة مصر بسبب هذه الصيحة الشوقية التى كان لها أثرٌ بعيد فى النفوس ووقع فعّال فى القلوب ؛
فأمرت بنفيه . فتخير الاندلس مُقاماً .

فكان فى عمل السلطة إحسانٌ له وللشعر وللعروبة من حيث قدّرت الاساءة واطفاء النور .

من هناك كاتبنى شوقى يطلب كتباً يستعين بها على تعرف مجد الاسلام وفخر العروبة فى الاندلس . فبادرتُ وارسلت اليه « نفح الطيب » و « المعجب بتلخيص أخبار المغرب » و « قلائد العقيان » وأيضاً . . . كتاب رحلتى « السفر الى المؤتمر ».

ماذا أقول عن دهشتى بعد أسبوع ؟ أعاد لى الرقيب العسكرى تلك الكتب ومعها كلمة فيها ملاحظة على أن هذا الصنيع من موظف بالحكومة قد لا يتّسق لواجبات الوظيفة !

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة ، جاءنى الصديق عديل شوقى بك وهو احمد بك عمر لأتوسل الى المرحوم رشدى باشا حتى يسعى عند السلطة فى عدم إعادة المال الذى كان ارسله الى شوقى ليعيش به فى بلاد الغربة . فكأنها كانت تريد أن يتكفف شاعر الشرق رغم ثروته الطائلة أو أن يموت هو وأولاده من الجوع فى بلاد الغرب !

وشاء ربك تكليل مساعى رشدى باشا بالنجاح . فاخذ احمد بك عمر يبعث بشىء من مال شوقى الى شوقى فى منفاه ، ولكن فى اوقات معلومة وبمقادير محدودة .

— ٩ —

لا أريد ان اتحدث هنا عما كان المرحوم السلطان حسين يوالينى به من أسباب الحفاوة والالتفات ، حتى انه اختارنى بمثابة مستشار فنى لكريمته النبيغة ، صاحبة السمو سيدتى الاميرة قدرية هانم .
لكننى أتحدث الآن عن امر يخصّ شوقى ايام منفاه .

فقد كان السلطان حسين يدعو الذين استخلصهم لوده ، فرادى وجماعات ، لتناول الغداء معه من حين الى حين فى سراى عابدين . وحسبى ان اقول إنه بعد الفراغ من الطعام ، تفضل فدعانى الى تناول القهوة بالبهو الكبير . فجلس فى الركن الشمالى الشرقى والمرحوم محمود شكرى باشا الكبير على يمينه ، وصاحب هذه الذكريات على يساره .

أخذ يتحدث عن النهضة العلمية وعن التطور فى الحركة الادبية. فاستعرض الرقى الذى حدث فى الصحافة وفى الاغانى القوميـة . ودار الـكلام بنوع خاص على المرحوم اسماعيل صبرى باشا وعلى ما أوتى من الفتوح فى هذه الابواب التى جعلته إمام الناظمين فى كل فن من فنون العهد القديم ، وفى كل مطلب من مطالب العصر الحديث .

ثم سألنى — رحمه الله — عن ترجمة كلمات كثيرة ، ومنها لفظة Mentalité . فقلت له ان هذه الصيغة قد استحدثها القوم لمعنى خاص يقاربه فى العربية قولنا « ذهنية » ، « عقلية » .

وحينئذ ، انتقل الى الـكلام عن طرافة التفنن عند شعراء الافرنج . ثم سألنى : أيوجد بين العرب الآن من فى قدرته أن يماشيهم مع هـذه « العقلية » الجديدة وهذه « الذهنية » الحديثة ؟

فقلت : ان هذه المزية قد تفوقت فى كثير من شعراء العصر ، ولـكنها اجتمعت كلها فى شوقى . . .

وهنا ظهرت لى إشارة من المرحوم محمود شكرى باشا ، فتشجعت بها على المضىّ فى الـكلام ، وقلت لمولانا السلطان :

ان شوقى ممن تزدان بهم الدول ، وإن مثله لو كان فى زمان الخلفاء لتخاطفتـه دمشق وبغداد وقرطبة ...

فتكررت الغمزات من ناحية شكرى باشا ... بالموافقة والمطابقة .

فاندفعت أتغنى بمحاسن شوقى ، وبما أفاضه على العروبة والاسـلام من نفثاته ، وبما منحه للشعر والادب من نفحاته ، وان هذه وهذه حسنات باقيات وآثار خالدة.

وهنا تزايدت الاشارة الرقيقة الدقيقة من المرحوم شكرى باشا ...

فعاودت الهجوم على الموضوع ، سيما وقد آنست من السلطان ما يشعر بالرضى والقبول . فقد التزم الاطراق والاصغاء فى سكوت وسكون .

وهكذا تماديت حتى الى كلمـة فيها جـراءة . شجعنى عليها ما رأيتـه من موقف السلطان . فقد قلت ما معناه بالاختصار :

أيصح أن تبقى مصر محرومة فى عهدك السعيد ، بلبلها الفريد ، وان يرفرف هذا الطائر الفريد الوحيد بجناحيه على قرطبة وطليطلة وعلى اشبيلية وغرناطة ، بعد ان خرجت منهـا العروبة خروج الأرواح من الابدان ؟ ان الذى تترمقه الثقافـة

العربية والقومية المصرية من ابن اسماعيل ومولى النيل ان يعمل بالخطة الكريمة التى رسمتها اريحيته النبيلة لنفسه التى صاغها الله من الخير للخير ، فيعيد الى القاهرة رونقها المجتمع فى أثواب شوقى .

وهنا تكررت الاشارة وتوالت الغمزات من محمود باشا شكرى . فأدركت أننى قد أكون تجاوزت الحد . ولكن السلطان ما زال مصغياً ، كأنه يطلب المزيد من الكلام . وماذا عسيت أن أقول بعد أن قد استوعبت كل ما فى الصدر ، بل كل ما يجيش بالخاطر ؟ فبقيت ساكتاً منتظراً تحول الحديث الى موضوع آخر من السلطان نفسه ، او صدور اشارته بالانصراف .

وقضى ربك بالخلاص من هذا المأزق .

فبعد برهة قصيرة ، وقف السلطان . فوقفنا . ثم تقدمت فقبلت يده الكريمة وانصرفت .

وقابلت فى الردهة الصديق المفضال احمد بك احسان . وفيما أنا أرفّه عن نفسى بمحادثته ، وأتنفس الصعداء لخروجى من ذياك الموقف ، إذا بالمرحوم شكرى باشا يهرول ورائى . ثم طفق ينهال بتعنيفى على اندفاعى فى تقريظ شوقى رغم الاشارات المتوالية التى كان يبديها لى من حين الى حين للتخفيف من غلوائى فى الحديث ! فلم يكن من سبيل للاعتذار سوى ان السلطان كان مصغياً تمام الاصغاء ، وأننى فهمت من اشاراتك انك راض عن صنيعى تمام الرضاء ، بل أنك قد تكون سبقتنى الى تقرير هذه فهذا عذرى ، وما فعلت سوى نصح السلطان بما انطوت عليه سريرتى واستقر فى صدرى .

* * *

لست أدعى ان كلامى كان له أثر فى نفس السلطان . ولكن الذى أعرفه ان الله سبحانه وتعالى جعله يضيف حسنة كبيرة الى حسناته الكثيرة ، فأصدر أمره بعد ايام الى المرحوم رشدى باشا ليسعى باسمه الكريم لدى السلطة فى ارجاع شوقى الى وادى النيل . وقد كان .

— ١٠ —

اكبر سعادة نالها شوقى ، بل سعادة السعادات التى أفاضها الله عليه فى الثروة والجاه وكل مطالب الحياة ، ان الشعراء المتعادين فى كل زمان ومكان قد اتفقت كلمتهم فى جميع

أقطار العروبة وفى عصرنا هذا على تمجيد شوقى ومبايعته فى حياته بالامارة عليهم .

فصار باقرارهم جميعاً (أمير الشعراء) حقاً . وهو لقب لم ينله قبله إنسان ، وهيهات ، هيهات ان يتجدد مثل هذا الحادث فى مستقبل الايام !

فالبيعة الصحيحة بشروطها المعتبرة شرعاً وسياسة ، قد انعدمت فى كل بلاد الشرق. ورأينا الخلفاء فى ثنايا التاريخ يتلقفون هذا اللقب وهذا المنصب بطريق الوراثة ، يضاف اليها صيغة صورية للبيعة ، الى ان انعدمت هذه الصيغة الشكلية أيضاً ، باستيلاء السلطان سليم العثمانى على مصر وملحقاتها واغتصابه الخلافة فى اوائل القرن العاشر للهجرة .

ثم تمادت السنون والقرون الى ان أتاح الله لنا ان نرى البيعة فى أعلى مظاهرها ومعانيها ، وعلى اكمل مشاهدها ومجاليها فى الحفلة النادرة المثال التى توارد الشعراء اليها من سائر الاقطار وبايعوا فيها شوقى بك مبايعة رسمية جهرية باعتماده اميراً لهم . فقد خاطبه حافظ عن نفسه وعنهم بقوله :

أميرَ القوافى قد أتيتُ مبايعاً وهذى وفودُ الشرق قد بايعت معى

وهذا اللقب كان قد اطلقه عليه الناس قبل تلك البيعة الصحيحة بزمان طويل . ولا غرو ، فان « ألسنة الخلق اقلام الحق » .

—١١—

فى انتظار أمير الشعر الجديد ، الذى قد لا يأتى به الزمان ، يحق للجيل الحاضر أن يفاخر الاجيال الماضية ويباهى الاجيال الآتية بانه حاز الشرف الاكبر بظهور امير الشعراء فيه . وفى ذلك ما فيه من معانى المجد الدائم لمصر فى هذا العصر .

وسبحان الحى الباقى لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

—١٢—

والى الله تعالى نتوجه بقلوبنا داعين ان يديم لمصر مولانا الملك المعظم فؤاد الأول ، فقد اصبح عصره زينة العصور بما يتوالب فيه من النهضات وما يترادف من وجوه الاصلاح فى أسباب الحياة وفيها الأدب العربى القومى . وذلك كله بعنايته العالية ، وبارشاده الكريم أقر الله عينيه بسمو ولى عهده آمين .

احمد زكى باشا

الأخلاق فى شعر شوقى

قالوا إن سيدة ذهبت لتوديع ولدها ، وقد اعتزم سفراً طويلا ، فلما تحرك القطار ودعته بأبلغ قصيدة شعرية عبّرت بها عن آلامها وتباريحها القاتلة .

على أنها لم تنظم فى هذه القصيدة الرائعة بيتاً واحداً ، ولم تنطق فيها بكلمة واحدة .

ولكن قصيدتها كانت — رغم ذلك — لا تقل عن أبلغ قصيدة قالها شكسبير أو المعرى ، ولم تكن قصيدتها تلك إلا زفرة زفرتها ودمعة ترقرقت فى عينيها .

ولا زلت أجدنى فى موقف وداع هذا النابغة الراحل إلى دار الخلود ، لا أستطيع أن أودعه بغير هذه القصيدة الصامتة التى تتلخص فى زفرة حارة ودمعة مترقرقة وذهول يستولى على النفس حتى ليكاد ينسيها كلّ واجب .

ولقد عممتُ مراراً أن أكتب شيئاً عن الزعيم الراحل الجليل ، فلم استطع الى ذلك سبيلاً ؛ فان الكتابة عن شوقى وتحليل شعره ودرس أدبه تتطلب وقتاً ويقظة ودقة .

أما الوقت فأصدقائى الأدباء يعلمون بأننى أستطيع أن أظفر بكل شىء فى هذه الأيام إلا الوقت . وأما اليقظة فقد حل محلها الذهول بهذا الخطب الجلل . وأما الدقة فلا سبيل اليها فى مقام تستولى فيه الدهشة ويستبد الذهول بالعقول .

وقد عممت بكتابة كلمة عن روايات شوقى بك ثم ارجأت كتابتها إلى حين ، وعممت أن أصف آخر ليلة قضيتها مع شوقى بك فتعنى الأسى والحزن عن كتابة شىء ، وأرجأت ذلك كله إلى الظروف والمناسبات التى أرجو أن تكون قريبة .

وقد حفزنى إلى كتابة هذه الكلمة السريعة القصيرة عن الأخلاق فى شعر شوقى بك أن كثيراً من الأدباء نعوا عليه الاكثار من ذكر الأخلاق فى شعره وعدوا ذلك عليه من المآخذ والعيوب ، وظن بعضهم أن شوقى كان يذكر الأخلاق فى شعره بمناسبة وبغير مناسبة ، وقد كان جديراً — فى زعمهم — أن يقتصر على ذكرها مرة أو مرتين . ولهم العذر فى ذلك فان اكثر من عابوا عليه ذلك قوم لا يفهمون الأخلاق إلا فهماً سطحياً . ولو أنك سألت أكثرهم أن يعرف لك

الاخلاق كما يفهمها لما زاد على تعريفها بأنها مجاملة الناس وارضاؤهم والرضوخ لتقاليدهم ومصطلحاتهم الحقيرة التى يتقنها أبعد الناس عن الاخلاق .

ولو أن شوقي كان يُعنى بهذا النوع الحقير من المواضعات والمجاملات التى تعجب الناس وترضيهم لما كان لشعره أية قيمة .

بلى ان شوقي كان يشيد بذكر الاخلاق ويرى أن الأمم لا ترتقى بغيرها . ولو وقف أكثر شعره على تقرير فضل الاخلاق لما كان مبالغاً ولا مكثراً .

وليس شوقي وحده هو الذى عنّى نفسه وملأ شعره بذلك فقد شغل المعرى نفسه ووقف أكثر لزومياته على نعى الأخلاق ، وقلما تمر بك صفحة من اللزوميات من غير أن تسمع فيها صرخة داوية تكاد تصم الآذان فى نعى الأخلاق والتبرم بلؤم الناس وصغار نفوسهم فتراه مرة يقول :

جنوا كبائر آثام وقد زعموا أن الصغائر تجنى الخلد فى النار !

أو يقول :

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطاً لما تحصل شيء فى الغرابيل !

أوقيل للنار : «خصى من جنوا» أكلتْ أجسادهم ، وأبت أكل السرابيل

هل ينظرون سوى الطوفان يغمرهم — كما يقال — أو الطير الأبابيل

سبحان من ألهم الاقوام كلهم أمراً يقود الى خبل وتخبيل !

أو يقول :

كتاب محمد ، وكتاب موسى والمجيل ابن مريم والزبور

هدت أمماً فما قبلت ، وبارت نصيحتها ، فكل القوم بورُ !

أو يقول :

والحق يهمس بينهم ويقام للسوءات منبرْ

أو يقول :

اذا قلت المحال رفعت صوتى وان قلت اليقين أطلت همسى !

أو يقول :

يبغون منىّ معنىً لست أحسنه فان صدقت عرتهم أوجهٌ عبسْ

أو يقول :

هم أسارى منايام ، فما لهمُ اذا أتاهم أسيرٌ لا يفكون

أو يقول :

فأفٌ لعصريهم - نهاروحندس - وجنسى رجال منهم ونســـاء

أو يقول :

ربيت شبلا ، فلما أن غدا أسداً عدا عليك ، فلولا ربه أكلك !

ثم ماذا ؟ لو شئت لملأت صفحات هذه المجلة وهى كثيرة بشعر المعرى وحده فى التبرم بأخلاق الناس ، وقد ذكرت من ذلك شيئاً فى « رسالة الغفران » ، والمعرى بعد شاعر واحد له أشباه كثيرون فى العربية وغيرها من اللغات ، فهل نرى أحداً من هؤلاء قد أسرف حين ملأ أكثر شعره بالأخلاق وتغنى بها ورأى بحقٍ أن الأمم لا بقاء لها بغير الأخلاق :

وإنما الأمم الاخلاق ما بقيت فإن هموُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

الأمم الأخلاق ! صدق شوقي بك الذى خبر عصره وبلى أخلاق معاصريه وعرف نقائصهم ورذائلهم وبرم بصغار نفوسهم وتألم من دسهم ونفاقهم وقد رأى بعض الأدباء يلتمسون معونته المادية والأدبية ، فاذا ظفروا بها فضلوه على كل شعراء الدنيا من قدماء ومحدثين ، ونحلوه أسمى ألقاب العبقرية والخلود ، فاذا انقطع عنهم فيض معونته نقضوا كل كلمة كتبوها ثناء عليه وملأوا الدنيا ازراء به وتحقيراً من غير أن يستشعروا أىَّ خجل فلا غرو أن نسمع هذه الصرخة تدوى من فم شوقي فتملأ الآفاق وهو يقول :

ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها بقاتلاتٍ اذا الاخلاقُ لم تُصب

وقد كان شوقى يؤمن إيماناً وثيقاً لا يتسرب اليه لمحة من الشك ان الاخلاق هى كل شئ ، وأن كل مصيبة مهما جلت هينة ميسورة يسهل التغلب عليها اذا كانت عدة الامة أو الفرد الخلق المتين .

فهو يقول فى رواية « أميرة الأندلس » (ص ١٠٣) : فكم من تاجر بمنزلة أبى الحسن قد نكب فذهب عنه كل شىء الا الخلق ، ثم لم تمض مدة من الشهور أو الاعوام حتى سمع الناس وتحدثوا ان التاجر فلاناً تغلب بالخلق على نكبته فعاد دولاب تجارته

كأمس عظيم الحركة عميم البركة ، ومثل أبي الحسن فى خلقه وأمانته وشرف اسمه فى الأسواق لا يبعد أن يقوم من هذه السقطة ورجلاه فى العافية ».

على أن شوقى لم يشغل نفسه بالاخلاق فى شعره ونثره فحسب بل شغل أكثر مجالسه بالتحدث عنها .

وقد كان شوقى يرحمه الله — يحدثنى فى آخر ليلة قضيتها معه عن ألمه الشديد وحزنه العميق على فساد الاخلاق وصغار النفوس ، فأنت تراه قد شغل شعره ونثره ومجالسه بهذه الرسالة العالية التى أدّاها أحسن أداء ، ولم يغفل أداءها فى أية فرصة سنحت له ، وما أروع قوله فى نشيده الخالد :

على الاخلاق خُطوا الملكَ وابنوا فليس وراءها للعزّ ركنُ

كذلك قامت نهضات الامم الحقيقية وأفلح دعاتها وقادتها بالاخلاق ، وبالاخلاق وحدها نجحت دعوة الرسول ، فلم يتردد حين لامه عمه عبد المطلب على ثباته فى دعوته التى ألبت القبائل عليه ، فأجابه الرسول من غير تردد ولا رهبة :

« والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الامر أو أهلك دونه ما تركته » .

وبهذا الخلق المتين مدحه الله فى كتابه الكريم فقال :

« وانك لعلى خلق عظيم »

هذا الخلق العظيم هو الذى تغنى به شوقى فى شعره ونثره ورددده فى نومه وصحوه ، ورأى أن نهوض الأمم لا يتحقق بدونه وان كل شعب يفقد هذه الميزة الكبرى سائر فى طريق الفناء والاضمحلال :

وليس بعامرٍ بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

رحم الله شاعر الاخلاق رحمة واسعة !

كامل كيلانى
سكرتير رابطة الادب الجديد

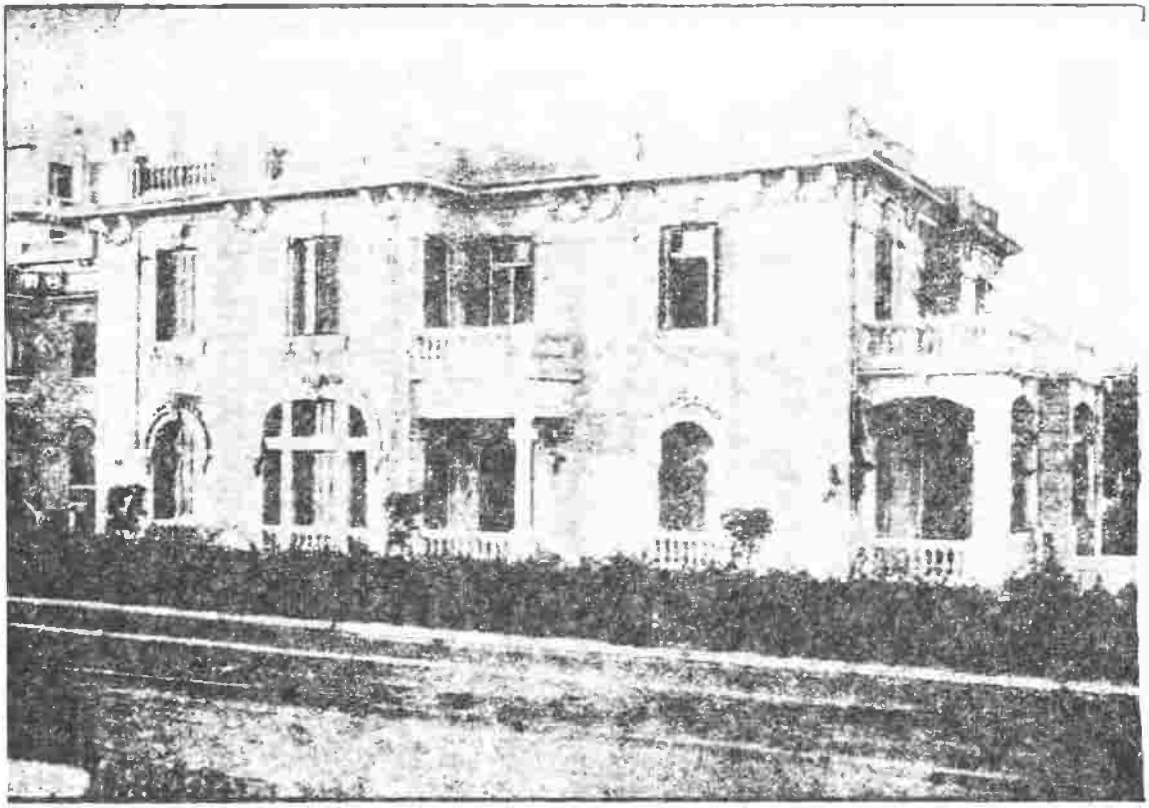

﴿ كرمة ابن هانى : منظر منزل شوقى بك من الخارج ، وهو واقع فى شارع مبرّح بن شهاب بالجيزة ﴾

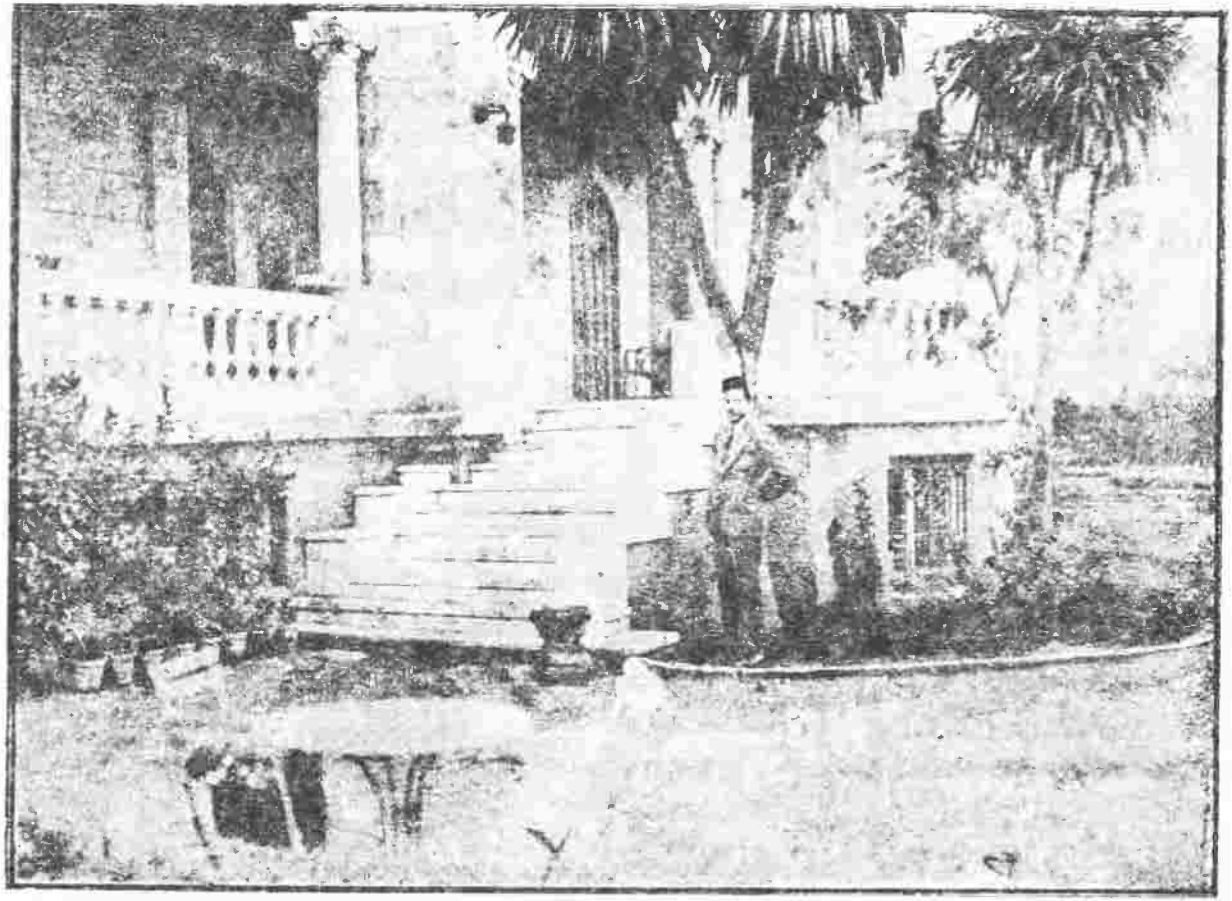

﴿ فى حديقة كرمة ابن هانى على ضفة النيل ﴾

﴿ البهو العربي في كرمة ابن هانئ ﴾